د . إحسان الأمين

تربية الولد

دراسة في ضوء القرآن والسنة





مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان أبي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الاخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

تربية الولد

دراسة في ضوء القرآن والسنّة


بسم الله الرحمن الرحیم

د. إحسان الأمين

تربيـة الولـد

دراسة في ضوء القرآن والسنّة



تربية الولد
دراسة في ضوء القرآن والسنّة
د. إحسان الأمين

الطبعة الأولى
آب/أغسطس 2014
القياس: 15 × 22
عدد الصفحات: 240
ISBN 978-614-441-028-8
شركة العارف للأعمال ش.م.م
العارف للمطبوعات
بيروت ـ لبنان 00961 70 839503
العراق ـ النجف الأشرف 00964 7801327828
Website: www.alaref.net

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [سورة الكهف: ٤٦]

الولد أمانة

الوالد كلمة تعني كلاً من الأب والأُم، فهما والدان للولد، كانا السبب في مجيئه إلى الحياة، بإذن الله، وهما يتحمّلان المسؤولية الكبرىٰ في إعداده وتنشئته وتعليمه وتربيته.

لذا فما يُفكِّر فيه بعض السُذّج من الناس بأنّنا نأتي بالأولاد ورزقهم على الله هو خاطئ إذا كان المقصود إكثار عدد الأولاد وعدم تهيئة الأجواء المناسبة لنشئتهم، وهو صحيح بمعنىٰ أنّ أرزاق العباد، ومنهم الأولاد، بيد الله سبحانه وتعالىٰ.

أمّا أن يكثر بعض الآباء من الأولاد دون أن تكون لهم القدرة على توفير مستلزمات الحياة المناسبة لهم من غذاء ودواء ولباس وفرص تعليم وتأهيل للعمل وإعداد وتربية.. فإنّ ذلك ليس مخالف لمنطق العقل والعلم فحسب، بل قد يعد جناية على مستقبل الأولاد ومشاركة، بصورة وأخرىٰ، في العمل على شقائهم.

إنّ الآباء الذين يكثرون من الأولاد، دون ترتيب وإعداد، وبدون القدرة على الإعالة والتربية.. إنّ هؤلاء الآباء يحبّون أنفسهم، ولو تظاهروا بحبّ أولادهم، وهم أنانيون، وإن كانوا يبدون وكأنّهم مُضحّون، لأنّ هؤلاء أشبعوا نهمتهم في طلب الولد، ولم يفكروا في مصلحته ومستقبله، وهؤلاء يحسبون أنّ في كثرة الأولاد خلود

لذكرهم واستمرار لوجودهم، ولم يعلموا أنّ بعض هؤلاء الأولاد قد يواجهون ظروفاً غير مناسبة تجعلهم يسلكون الطريق الخاطئ، ولا يحملون لأسلافهم إلّا الذكر السيِّئ.

إنّ كثيراً من الآباء والأُمّهات في مجتمعاتنا يفهمون وجهاً واحداً للعلاقة مع الولد: إنّهم يعتقدون أنّهم قد منّوا على أولادهم بأن سببوا مجيئهم إلى الحياة، وأنّ الشرائع جميعاً قد حضّت على حقوق الوالدين على أبنائهما.. تلك الحقوق التي قد تصل إلى التقديس للأُم والإحترام والإجلال لها وللوالد.

ولكن لا حقوق بلا واجبات، ولا معادلة في الكون، ليس فيها طرفان، فإنّ للولد حقوقاً على والديه، ليست بالقليلة، وإذ يكون الولد صغيراً، فإنّ حقوقه عليهما تفوق بكثير حقوقهما عليه.

ومن الطبيعي أنّ تقصير الوالدين، قد يسبب أحياناً تقليل حقوقهما، فإنّ تلك الحقوق ليست بمجرد النسب، بل هي مترتبة على أساس الخدمات التي قدَّماها والمتاعب التي تحمّلاها من أجل ولدهما، وفقاً لقانون اجتماعي: (إخدِم تُخدَم واحتَرِم تُحتَرَم) وهو يجري في سائر العلاقات البشرية.

ولذا كان من الطبيعي أن تكون الأم أكثر حقاً، لأنّها الأكثر فداءً وتضحية لولدها.

ومن المستغرب أن نجد كثيراً من الناس لازال يشعر بالفخر لكثرة وُلدِه، ويتباهىٰ بذلك أمام الآخرين.. وأكثر من هؤلاء مَن

يحسب أنّ قيمته تتناسب مع ما يُرزَق من أولاد، خصوصاً الذكور منهم، وأنّ الشخص الذي يحرم من الأولاد بسبب أو آخر، هو مقطوع الذِّكر: أي إنّه أبتر، بالتعبير الوارد في القرآن.

إنّ هذه العقلية: عقلية قديمة ولا تتفق مع منطق الاسلام، وقد قوبل بها النبي محمد(ص) من قبل جهلة قريش، عندما شنّع بعضهم عليه، وهو العاص بن وائل، بعدما تكرر موت ولديه.. ناعتاً النبيّ الكريم بأنّه (أبتر).

والقرآن الكريم ردّ الصاع بصاعين، فخاطب النبي بقوله تعالى: ﴿إنّا أعطَيناك الكُوثَر﴾.. أي أعطيناك الخير الكثير، في نفسك، وفي رسالتك، ونسلك، وأمّتك.. ومن ثمّ في جنّتك.

فلا تقاس قيمة الانسان بآثار، لا دخل ولا فضل له فيها، كوجود الولد أو عدمه، كثرته أم قلّته، بل إنّ (قيمة كلُّ امرئ ما يحسنه).. قيمته بقيمة الذات التي يحملها، من إيمان وعلم ومعرفة ومن ثمّ بقيمة العطاء والخير الصادر عنه.

إنّها قيمة حقيقية، للانسان دور في ايجادها وفضل عملي بالخير الذي يشع عنه في المجتمع.

ولذا وصف القرآن: العاص بن وائل، وأمثاله بالأبتر المقطوع الذكر، رغم أنّ العاص كان كثير الولد، ولكن لا خير فيه، ولا في ولده.

كم منّا يفكِّر بعقلية (العاص بن وائل)؟ وكم منّا يفكِّر بطريقة

القرآن في التعامل مع النفس ومع الناس؟

إذن: من الخطأ أن نبحث عن الخلود، من خلال الأولاد، وكذا الأموال، إذ يقول تعالى: ﴿أيحسب أنّ ماله أخلده﴾[1]، فكلاهما: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثواباً وخير أملا﴾[2].

فالزينة مطلوبة، ولكن قد تأتي وتذهب، كما تمر سنوات الشباب وتذبل زهرة العمر، وتبقى الأعمال الصالحة، والتي يمكن أن يكون منها (الولد الصالح) إذا ما أُحسنت تربيته وتزكيته، كما جاء في الأثر الشريف: (إذا مات المرء انقطع أثره إلّا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له).

وهكذا نخلص إلى أنّ الوالد، مسؤول عن ولده، ومؤتمن فيه، وبالتالي لابدّ أن يعمل على تهيئة الأجواء المناسبة لاستقباله ونموه ونشوئه حتى يقف الولد على قدميه، راشداً ناضجاً يواصل دربه في الحياة، بنجاح، إن شاء الله[3].

---

١ ـ الهُمزة/ ٣.

٢ ـ الكهف/ ٤٦.

٣ ـ عن الإمام جعفر الصادق: «تجب للولد على والده ثلاث خصال: اختياره لوالدته، وتحسين إسمه، والمبالغة في أدبه».

في استقبال الولد

قد يشعر بعض الأشخاص بالإحباط حين يقرأون هذا الفصل، ولذا لابدّ أن نقول مسبقاً إنّ الإنسان يستطيع بالإرادة التي منحها الله له أن يُغيِّر مساره، وربّما مسار غيره، في أي منعطف من منعطفات حياته.. بشرط أن لايكون متعمداً ومصراً على تفويت الفرص وتأجيلها إلى آخر العمر.. لأنّه عندها ينطبق عليه المثل القرآني القائل: (ولات حين مناص).

على أيّ حال، فإن من المعلوم أنّ هناك ثلاثة عوامل أساسية مؤثرة في تكوين الانسان: جسمه، عقله، وبالتالي تربيته وشخصيته، ومسيره ومصيره.

١ ـ الوراثة:

أي تأثير الجينات الوراثية وما تُسمّىٰ بـ(الكروموسومات)، ولكن كان يعتقد في البداية أنّ صفات الانسان الجسمية، من طول وقصر، وتكوين عظامه، ولون شعره وبشرته وعينيه.. الخ، تتأثر بالكروموسومات المتوارثة، والمتلاقحة فيما بين الأزواج، لعدّة أجيال، وهذا ثابت علمياً، بلا إشكال، ولقد سبق الرسول محمد(ص) العلم بألف وأربعمئة سنة حينما أتي له بصبي أسود

لوالدين، فقال (ص): «إنّه ليس من أحد إلاّ بينه وبين آدم تسعة وتسعون عرقاً كلّها تضرب في النسب، فإذا وقعت النطفة في الرحم، اضطربت تلك العروق تسأل الله الشبه لها»[1].

ولكن استجد بعد ذلك في علم الوراثة انتقال الصفات النفسيّة، والإستعداد للمهارات المختلفة بواسطة الكروموسومات، وهذا ليس بجديد على التراث الإسلامي الذي نجد فيه قولاً مأثوراً عن الرسول (ص) يقول: «تخيّروا لنطفكم، فإنّ النِّساء يلدن أشباه إخوانهنّ وأخواتهنّ»[2]، بمعنىٰ تأثر الطفل بصفات عائلة والدته.

وعنه (ص) أيضاً: «الناس معادن، والعرق دسّاس، وأدب السُّوء كعرق السُّوء»[3].

ومن هنا تبدأ المرحلة الأُولىٰ لإستقبال الولد، أي في إنتخاب الأُم التي تحمل الصفات الوراثية المناسبة لإنجاب طفل معافىً وسليم.

ينقل التاريخ لنا حكاية تقول إنّ الإمام علي بن أبيطالب عندما أراد أن يتزوّج ـ بعد وفاة زوجته فاطمة الزهراء بنت الرسول(ص)ـ فإنّه سأل أحد النسابة أن يدلّه على إمرأة يتزوّجها، من عائلة أو

---

١ ـ الوسائل/ الحرّ العاملي/ كتاب النكاح/ باب أنّ الولد يلحق بالزوج/ رقم الحديث (٢٧٧٠١)/ ط. مؤسسة آل البيت.

٢ ـ تاريخ دمشق: ح١١٠٦٨.

٣ ـ كنز العمال: ج٣/ ص٤٤٢/ ح٧٣٦.

قبيلة مشهورة بالشجاعة، لينجب منها ولداً شجاعاً.. فأشار عليه أن يتزوّج فاطمة من بني كلاب، فإنّهم عرفوا بالشجاعة.. وفعلاً أنجبت له أربعة أولاد شجعان استشهدوا جميعاً مع الإمام الحسين بن علي في كربلاء، وكان كبيرهم وأبرزهم: أبوالفضل العباس بن علي.

ورغم هذه المأثورات في تراثنا والتي أكّد صحّتها العلم بعد مئات السنين، إلّا أنّ القليل جدّاً من الرجال مَن يبحث عن الخصائص الوراثية لزوجة المستقبل، فالأكثر مبهور و(مجبور) بجمال المرأة وصفاتها الظاهرية فحسب. وإذا كانت تجرىٰ بعض الفحوصات المختبرية على الدم للزوجين، فإنّ ذلك لغرض الإطمئنان إلى عدم وجود (المانع) الطبي من الزواج، لا (الدافع) الشخصي والوراثي عند الزوجة والمحفز نحو الزواج منها.

أمّا (الحب)، فإنّه يُعمي ويُصِم، وكما قال الشاعر: عين الرضا عن كل عيب كليلة.

فإنّ الشباب المهووسين ببعضهم، ومنذ أوّل نظرة، مسيّرون وليسوا مختارين في زواجهم، ولكن سرعان ما تمضي الأيام، ويواجه كلٌّ حظَّه (المحتوم)، سعيداً موفقاً، أو يواجه المشاكل تلو المشاكل، الناتجة عن عدم الدقة في الإختيار، أو العجلة دون حصول التفاهم والإنسجام.

إذن، الخطوة الأُولىٰ لإستقبال الطفل تبدأ عند العقد، عقد النيّة

على الزواج، والإختيار الموفق، قبل عقد القران على الأُم.. ولا بأس بأن نـذكر بأنّ كـثيراً مـن الصـفات السـلبية، وكـذلك الأمـراض المتوارثة في بعض الأُسَر، يمكن تجنّبها بإختيار زوجة من أُسرةٍ أخرى لاتحمل مثل هذه الآثار.

وكذلك يمكن تحسين النسل والحصول عـلى جـيل أكـثر قـوّة ووسامة من خلال التزاوج مع عوائل غـريبة، أو شـعوب وقـبائل أخرى، وهذا ما لايفهمه حتى الآن بعض النـاس الذيـن يـرفضون تزويج بناتهم أو أبنائهم من الغرباء، من غير أبناء القبيلة أو البلد[1].

على أي حال، إذا كنت قـد حـالفك الحـظ فـي انـتخاب الزوجـة المناسبة، أو خالفك قليلاً أو كثيراً، فلا تبتأس ولا تيأس، لأن أمامك الخطوة التالية، والتي يـمكن مـن خـلالها تـعديل الصـفات وبـناء الشخصيات، ولا تنسَ أيضاً أنك لست وحدك في هذا الدرب، فكثير من الناس يتزوّجون دون أن تكون لهم فرصة الإختيار، والكـثير مـن هـؤلاء يشـقّون دربـهم بـنجاح ويـولِدُون أولاداً صـالحين، وبعضهم مُبدعون.

وأعلم على أيّ حال بأنّ الله تعالىٰ عادل في كل خـلقه، فـإذا مـا سلب شخصاً شيئاً فإنّه يعوّضه في أشياء أخرىٰ، ولكن علينا أن

---

١ ـ رُوِي عن رسول الله (ص): «اغتربوا لاتـضووا» بـمعنى تـزوّجوا الغرائب لاتأتـو بأولاد ضاوين، أي ضعفاء. ولا يعني ذلك عـدم تـزويج الأقـارب مـطلقاً، وقـد زوّج الرسـول (ص) ابنته فاطمة الزهراء من ابن عمّه علي بن أبي طالب، وإنّـما هـو مـن بـاب الحث عـلى تـزويج الغريب، إن كان كفؤاً، دون الإقتصار على الأقارب.

ننصف أنفسنا والآخرين ونُهيِّئ الفرصة لإكتشاف تلك المواهب الكامنة، ونُسخِّرها في الطريق المناسب.

ألا ترىٰ معي أنّ بعض الذين ساهموا في الإبداع العلمي أو الفكري أو الفني العالمي كانوا يفتقدون حاسّة، أو يعانون من أمراض جسيمة، ولكن لم يحل ذلك دون أن يبدعوا ويحقِّقوا ما فشل في تحقيقه كثير من الأصحاء ممّن حولهم؟

إذن، دع القلق وانتقل متفائلاً إلى الفصل الآتي.

٢ ـ البيئة والمحيط:

لايختار الطفل ولا أبواه، لون عينيه، وكذا لون شعره وبشرته، ولكن يمكن للأبوين أن يختارا لولديهما نوع التعليم الذي يتلقّاه، وكذلك فإنّهما يؤثّران بأكثر من نحو في سلوكه الشخصي: أخلاقه وعاداته ورد فعله تجاه الأحداث المختلفة، بل وحتى دينه ونظرته للحياة.

وكما إنّ التربة الصالحة والسقي المناسب وكذا الجو، يساعد على نمو الأزهار وتفتحها، كذلك تساعد الأجواء البيتيّة، ونوع التغذية، وكذلك الإرفاد والإرشاد، وأسلوب التعامل، والمدرسة، والمحيط من شارع ومجتمع ووسائل إعلام ونظام ودولة.. تساعد كل هذه العوامل في تربية الأولاد ورشدهم وتعليمهم، كما تؤثر إذا كانت سلبية بشكل كبير في انحطاطهم وضعفهم.

لذا، فإنّ أمام الوالدين مسؤوليةً خطيرةً وفرصاً كبيرة لهداية الطفل نحو صلاحه وتعديل سلوكه الفردي والإجتماعي باتجاه الرُّشد والتكامل.

على أنّ كثيراً من هذه الفرص سوف تمر دون انتخاب واعٍ من الوالدين، لأنّ الطفل سوف يكون مسيّراً بنحو وآخر في المراحل المبكرة من طفولته، من دون أن يُحظىٰ بالإهتمام المطلوب.

نقطة البدء:

نقطة البدء تبدأ منذ اللحظات الأُولىٰ لتكوّن الطفل في رحم أُمّه، ولذا حرصت بعض الإرشادات الدينية على أن تكون الأجواء حينها هادئة ومناسبة، ليتم الإخصاب بعيداً عن الإضطراب أو روح الشر.. وأعتقد أنّ العلم إن لم يقرّ أهمية ذلك لحدّ اليوم، فسيقرّه غداً[1].

ولكن بعد هذه اللحظة، فإنّ العلم، وكذا التعليمات الدينية، تؤكّد على أهميّة هدوء الأُم وصحّتها النفسيّة والجسديّة، لكي تتوفّر

---

١ ـ بل قبل ذلك، حيث يؤثر المال الحرام في الولد، فعن رسول الله (ص): «يابن مسعود، لا تأكل الحرام ولا تلبس الحرام ولا تأخذ من الحرام ولا تعص الله، لأنّ الله تعالىٰ يقول لإبليس: ﴿ واستفزز مَن استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً ﴾ (الإسراء/ ٦٤)، والرواية في مكارم الأخلاق للطبري عن ابن مسعود، ح ٢٦٦٠. ورُوِي عن الإمام الصادق: «كسب الحرام يبين في الذريّة».

الأجواء السليمة المناسبة لنشأة الطفل، القادم والمبارك.

إذن، عليك الإنتباه أيُّها الأب، فإنّ إغضاب المرأة، ولو لمرّة واحدة، أو إنفعالها بسبب شجار أو إهانة، قد يزيد من إفراز هورمون الكورتيزون في دم المرأة، والذي يغذي الولد، وبالتالي فقد تتسبّب من حيث تدري أو لاتدري -وأنت تدري الآن- بإصابة ولدك بمرض جسمي، أو استعداده للإصابة بالسكر، أو الصرع، أو الإنفعال العصبي والأمراض النفسيّة.

وعليك الإختيار ابتداءً، أن تتجنّب إنجاب الولد، أو أن تعامل أُمّه بإحترام وتقدير، وتُهيِّئ لها الظروف المادية والنفسية الملائمة لكي تحمل لك الوليد بدفء وحنان ولطف ودلال.

وعلى الأُم التي تريد ولداً هادئاً وذكياً وسالماً، أن تنأىٰ بنفسها وبوليدها عن أجواء الشيطان، وأوّلها الغضب، ومن ثمّ من كل الآثام والتفكير السيِّئ، الحاسد أو الحاقد، وأن تعمل على أن لايُفكِّر الولد إلّا بخير، من جهة أنّها لاتفكر وهي تحمله إلّا بخير.

إنّ قراءة القرآن، بأنغامه الرائعة ومعانيه السامية، خير معين ويهيِّئ أحلى الأجواء وأكثرها إشباعاً بالحبّ والأمل والطمأنينة.

الخطوة الأخرىٰ: إحذروا الطفل، منذ مجيئه إلى الدنيا، ولا تظنّوهُ صغيراً لايفهم أو جاهلاً لايعلم، فإنّ الطفل قد يكون أكثر تحسُّساً وتلمُّساً للواقع لأنّه يتعامل معه بالحس والفطرة السليمة، كالمرآة الصافية التي تعكس كل صورة دون أي تشويه أو

ضبابية[1].

قد لايرى الطفل في أيامّه الأُولىٰ بعينيه صورة واضحة، ولكن أذنه تسمع بدقّة متناهية، وهو يتناول الكلمات ـ طيِّبها وخبيثها ـ بسرعة وشهيّة، فلا تسمعوه إلّا الطيِّب من الكلام، والهادئ من الأنغام.

وهكذا تبدأ مسيرة الطفل، وتبدأ معها الأدوار الجميلة والمهمة للوالدين، وبين أيديهما لوحة بيضاء ينقشان عليها رؤاهما، أحلامهما، وذكريات الأيام وأصداء الزمن.

٣ـ الإرادة:

مهما ورث الطفل من صفات، ومهما كانت ظروف البيت وأجواء النشأة إيجابية أم سلبية، فإنّ الولد يستطيع، وهو يكبر، أن يُغيِّر مجرىٰ حياته بوعيه وإرادته، وعزمه وتصميمه، ليختار لنفسه الحياة التي يرضاها لنفسه، دون اختيار الآخرين وبعيداً عن تأثيرهم.

إنّها سنّة الحياة، سنّة الله في خلقه أن جعل الإنسان خليفته في الأرض وسيِّد مخلوقاته، مريداً، مفكِّراً، مدبِّراً، مختاراً، لا مسيّراً ولا مقهوراً، ولا منهزماً ولا مستسلماً.. ولولم يكن كذلك، لبطل

---

١ ـ عن الإمام الصادق: «أكبر ما يكون الإنسان يوم يولد، وأصغر ما يكون يوم يموت»، كتاب مَن لايحضره الفقيه: ج١/ص٥٩٥.

العقاب وما وجب الأجر، فالإنسان المسلوب الإرادة، غير مسؤول عن تصرفاته؛ إذ لا مسؤولية بلا اختيار، ولذا لايُعاقب المجنون على فعلته، ولا الطفل على جريرته، لأنّهما فقدا العقل الواعي والإرادة الحُرّة، فلا يؤاخذا بعملهما، لاشرعاً ولا قانوناً.

ولكنّ الآباء لهم دخل وتأثير في نمو هذه الإرادة وتقويتها، عندما يحين الوقت المناسب لذلك.. وإذا لم يعِ الآباء متطلبات كل مرحلة من مراحل نمو الطفل، وقمعا عند مراهقته وبلوغه رغبته في الإختيار، وتوجّهه نحو إعمال الذات، فإنّ الطفل قد ينتكس ويواجه فضلاً عن معاناته من القهر والإضطهاد، ضموراً في شخصيته ووهناً لإرادته، ممّا يجعله مطيعاً لغيره أكثر ممّا ينبغي، ولهذا تبعات وتبعات.

والإرادة هي التي تصنع مستقبل الإنسان وتقرِّر مصيره، ولكن لاينبغي التفاؤل كلياً، فإنّ صحّة الإنسان وراحته النفسية تبقىٰ متأثرة بعوامل الوراثة والبيئة، وهما بطبيعة الحال لايفرضان على الإنسان اتجاهه ومصيره، ولكن قد يُعكِّران عليه صفو أيامه، لأنّهما يؤثران بشكل كبير في تكوين شخصيته ومزاجه.

ومع ذلك، فإنّ الإنسان يستطيع تجاوز ماضيه وتحرير نفسه من تبعات الزمن الغابر، والبدء، متىٰ أراد وسعىٰ للتغيير، للعيش بسعادة وهناء بعيداً عن الذكريات المُرّة وآلامها، وهذا ما عملت له الشرائع الإلٰهية، ويعمل من أجله العلاج النفسي الحديث.

هذه خلاصة إجمالية للطريق الجميل والطويل الذي يسلكه الآباء والأبناء في رحلتهم المباركة، يداً بيد، ومعاً من أجل حياة سعيدة وكريمة، راقية وشريفة، وفي كل منعطف هنا وهناك إشارات وعلامات تستدعي الإنتباه، وسنحاول أن ننتبه عند كل مفترق طرق، أو تغيير اضطراري في خط السير.

الهدف قبل كل شيء

إذا كنت تقصد القيام برحلة، طويلة أم قصيرة، فإنك تُحدِّد قبل كل شيء: المقصد والهدف من تلك الرحلة، إذا حدَّدت ذلك، فإنك تبحث بعدها عن الطرق المؤدّية للهدف، أقصرها أو أفضلها، ومن ثمّ الوسائل التي تستخدمها، أيسرها أو أكثرها أماناً، وهكذا تدرس عموم مستلزمات الرحلة، وما تحتاجه من مال وزاد ولباس وأدوات وغيرها.

كذا رحلتك - أيُّها الوالد - مع ولدك، إبناً كان أم بنتاً، فإنّ الهدف هو الذي تتجه إليه بوصلة فكرك وقلبك، كلّما خطا الولد خطوة، أو ازداد طوله شبراً، أو تقدّم في المدرسة وشق طريقه في المجتمع، فما هو الهدف؟

الهدف المُسمّىٰ في الكتب هو أن يبلغ الولد - الصبي أو الفتاة - الرُّشد، فما هو الرُّشد؟

لقد اختلف في معنى الرُّشد، لغة وفقهاً وتفسيراً، ولكنّ في هذا الإختلاف إثراءً وإغناءً للمعنىٰ، ممّا يستحق بعض التوقف والتأمُّل في المعاني المحتملة للكلمة.

قال اللغويون: الرُّشد: هو خلاف الغي ونقيض الضلال، وبمعنى الهداية والصلاح.

وقالوا: الرَّشيد: الحسن التقدير.

واختلف المفسِّرون، في تفسير قوله تعالى: ﴿وٱبتَلُوا اليَتامىٰ حتّى إذا بَلَغوا النِّكاحَ فإنْ آنَستُم مِنهُم رُشداً فَادفَعوا إليهِم أموالهم...﴾[1].

فعن الحسن البصري وقتادة: صلاحاً في العقل والدين.

وعن ابن عباس: صلاحاً في العقل وحفظ المال.

وعن مجاهد: رُشداً: يعني في العقل خاصّة.

واختار الطبري والطبرسي رأي ابن عباس[2].

وعند الفقهاء: الرُّشد، هو صلاح المال وإن كان فاسقاً، أي توفير الخبرة فى إدارة المال واستثماره وحفظه وإصلاحه وحُسن التصرف به وتمييز النافع من الضار، فلا ينفق ماله في غير مصلحة، ولا يضيعه بالتبذير والإسراف.

وعرَّفه بعض العلماء بأنّه: مَلَكَةٌ نفسانيةٌ تقتضي إصلاح المال وتمنع من إفساده وصرفه في غير الوجوه اللائقة بأفعال العقلاء[3].

وانفرد الشافعية بالقول بأنّ الرُّشد: صلاح الدين والمال، بألّا

---

١ ـ النساء/٦.

٢ ـ انظر: تفسير الطبري، ومجمع البيان للطبرسي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، في تفسير الآية.

٣ ـ انظر: مصطلحات الفقه، الشيخ المشكيني، ص ٢٧٠، ط. الهادي بقم، عن الشهيد الثاني.

يرتكب من المعاصي ما يسقط به العدالة، وإصلاح المال: أن يكون حافظاً لماله غير مبذر[1].

ونظرة عامّة إلى الحدّ المشترك بين اللغة والتفسير والفقه، هي أنّ الرُّشد: هي المرحلة التي يبلغها المرء إذا كمل عقله بحيث يحسن التصرف في ماله.

ولذا قيل: أنّ الرُّشد خلاف الغي (الضلال)، وهو الإهتداء إلى مقاصد الحياة[2].

وفي القانون: أنّ الرُّشد، هو السن الذي إذا بلغه المرء استقلّ بتصرفاته.

فإذن، الهدف هو أن نصل بالأبناء إلى مرحلة من النضج العقلي الذي نطمئن فيه إلى أنّهم يستطيعون شق طريقهم في الحياة، دون ناظر أو ولي، لأنّهم قادرون بما اكتسبوا من معرفة وتجربة أن يميِّزوا الخير من الشرّ، والنافع من الضارّ، والصالح من السيِّئ.

إنّه وبإختصار، أن يبلغ الأولاد مستوىً نستطيع فيه أن نطمئنّ على حُسن تدبيرهم وتصرفاتهم، ولا شكّ بأنّ أهم وأخطر معيار لذلك: هو أن يحسنوا التصرف في المال، لأنّ الشاب العاقل لايغتر ولا يبطر إذا ما اكتسب مالاً، بل يتصرّف فيه بحكمة، ينفق منه على

---

١ ـ الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي، ج٦، ص٤٤٦٥، ط. دار الفكر بدمشق – سوريا.

٢ ـ الميزان في تفسير القرآن، للطباطبائي، ج٤/ ص١٧٨.

نفسه وأهله من دون تبذير، ويدخّر ما تبقىٰ لمستقبل أيامه، وكما يقول المثل: (الفلس الأبيض لليوم الأسود)، أو يستثمر المال ويعمل به، بفكر وروية، دون تهور وشطط.

أمّا السفيه الذي لم يكتمل عقله أو لم يصلح في نفسه، فإنّه إذا ما حصل على مال فسرعان ما يُبذِّره على شهواته وملذّاته ونزواته، وينفقه دون أن يحسب حساباً لنفسه أو لغيره من أفراد عائلته، ولا يرث هو ولا أهله منه إلّا الندامة والحسرة، على ما فرّط من مال وأضاع من فرص.

فإذا كان الهدف: أن يكون الولد راشداً بمعنى عاقلاً، فكيف السبيل إلى ذلك؟

إنّ البعض يُريد اختصار الطريق فيبدأ مع الطفل وهو صغير بعد، يعظه ويأمره وينهاه، وكأنّه إنسان بالغ، ظاناً بأنّ ذلك العمل يساعد على التعجيل بتربية الولد وبلوغه، فهل ذلك صحيح؟ (لا).

وإنّ البعض يُريد من ولده أن يكون مطيعاً ليصنع من ولده جندياً منضبطاً يُنفِّذ الأوامر دون فكر أو تريث أو اعتراض، على طريقة المقولة السائدة في بعض الدول المتخلِّفة: (نَفِّذ ثمّ ناقش)، بل (نَفِّذ ولا تناقش).

ومن الطبيعي أنّ هؤلاء الآباء يريدون لأولادهم الصلاح، وهم يظنون بأنفسهم خيراً، وأنّهم أعلم من أولادهم بما يضرّهم وينفعهم، ولكنهم لايعلمون أنّهم يصنعون بذلك من أولادهم:

دواب رحىٰ، تروح وتجيء، في مسير واحد، دون أن تعي دربـها، فإذا ما خرجت عن ذلك الدرب ضلّت وتاهت.

إنّ جميع الآباء يريدون الصلاح لأبنائهم، ولكن ليس جـميعهم يوفق لذلك، بل إنّ بعضهم مـن حـيث يشـعر أو لايشـعر ـ غـالباً ـ يدفعون بأبنائهم إلى الهـاوية، الفشـل فـي حـياتهم، المـعاناة فـي دنياهم، والتقهقر في طريق آخرتهم.

وليس غريباً أن نقرأ في بعض الآثار المروية: «لعن الله والِدَينِ ساعدا ولدهما على العقوق» أي أنّهما دفعا بولدهما إلى مخالفتهما أو الوقوع في المعصية.

إذا وضح الهدف، فكيف السبيل إليـه؟ هـذا مـا سـنقرأه لاحـقاً، إن شاء الله.

مسافات الرحلة الثلاث

في كنز العُمّال، عن رسول الله(ص)، قال: «الولد سيِّد سبع سنين، وخادم سبع سنين، ووزير سبع سنين، فإن رضيت خلائقه لإحدىٰ وعشرين، وإلّا فاضرب على كتفه قد أُعذرت إلى الله فيه»[1].

وفي كلام للإمام جعفر الصادق: «الغلام يلعب سبع سنين، ويتعلّم الكتاب سبع سنين، ويتعلّم الحلال والحرام سبع سنين»[2].

وفي رواية أخرى: «اتركه سبعاً وعلِّمه سبعاً ورافقه سبعاً».

وعنه أيضاً: «أمهل صبيك حتى يأتي له ست سنين، ثمّ ضمّه إليك سبع سنين، فأدِّبه بأدبك، فإن قبل وصلح وإلّا فخلّ عنه».

والروايات هذه كلّها تجتمع في:

المرحلة الأُولىٰ: وهي مرحلة الطفولة الأُولىٰ، كما قد تُسمّىٰ، وفيها: أنّ الطفل يترك، ليشبع لعباً، وهو أمير في تلك المرحلة، يستجيب الوالدان لطلباته، دون أن يجهدا نفسيهما في تربيته وتعليمه.

وربّما فهم البعض من تلك الأقوال، أنّ مرحلة الطفولة الأُولىٰ

---

١ ـ كنز العمال: حديث رقم ٤٥٣٣٨.

٢ ـ الوسائل: ج١٢/ص٢٤٧.

مهملة ولا أهميّة لها، وبالتالي يترك الطفل على هواه، دون أمر أو نهي، لأن لافائدة في ذلك.

ولكنّ الحقائق العلمية تؤكّد على الأهميّة القصوىٰ لهذه المدّة؛ خصوصاً سنيها الأُولىٰ، بل سنته الأُولىٰ، إذ تتشكّل فيها شخصية الطفل النفسية: خلقياته، انفعالاته، هُدوؤُهُ واضطرابه، فرحه ونشاطه، كسله وكآبته، وبالتالي سعادته وشقاؤه، فكيف تكون هذه الفترة مهملة؟

إنّ اللبنات الأساسية للشخصية تتكوّن في السادسة من العمر، وهذه الشخصية هي التي ستنبئ إلى حدٍّ ما بسلوك الطفل، وبمدىٰ نجاحه أو إخفاقه في المستقبل[1].

والواقع أنّ نظرة متأمّلة إلى تلك الروايات، وبجانبها بعضاً آخر من الأقوال المأثورة، تعطينا الفكرة بأنّ هذه الفترة مهمّة وأساسيّة، ولكن تلقي الطفل لايكون فيها عادة ـ وغالباً ـ من خلال التعليم والتلقين، وإنّما من خلال الملاحظة الشديدة والمشاهدة الدقيقة لسلوك والديه، ومن ثمّ تقليدهما دون علم أو وعي في أفعالهما وإنفعالاتهما، ولذا جاءت روايات تحذّر بشدّة من تصرف الوالدين أمام الطفل، تصرفات خصوصيّة، ستبقىٰ محفورة في ذاكرته ليقلّدها طفلاً أو صبياً.

إنّ الطفل يتعامل في هذه الفترة بحواسه الشديدة الفعّالية،

---

١ ـ إلياس ديب/ عالم الولد/ ص٤٥/ دار الفكر اللبناني.

وعقله اللّاواعي، ليلتقط من محيطه كل صوت وصورة، أكثر ممّا تلتقطه أكثر آلات التصوير حسّاسية ودقّة، وتبقىٰ تلك الصور والمشاهد حاضرة في شعوره وغائبة مختفية في لا شعوره، فإذا ما تكرر الحدث أو دواعيه، سارع الطفل وهو في هذه السن إلى تمثيل تلك المشاهد وتكرارها.. ليغضب ويصرخ حيثما كان أبوه يغضب ويصرخ، وينفعل ويبكي في الموضع الذي كانت أُمّه كذلك، وهكذا في سائر تصرفاته.

لذا حذارِ حذارِ أيُّها الآباء والأُمّهات، من التصرف بلا حكمة، أو الظهور بلا مودّة ورحمة، أمام أولادكم الصغار.. فأنتم، لا غيركم، مُعلّموهم الأوائل، بل إنّكم تنقشون فيٰ نفوسهم لوحات حب وجمال ولطف، أو تنحتون في قلوبهم أصنام حقد وحسد وضغينة، بالشكل الذي به تظهرون أمامهم والطريقة التي تنحونها في حياتكم.

فإذا أردت أن تكون والداً، فابدأ قبل كل شيء بضبط نفسك، وضع قواعد وحدوداً لتصرفاتك في مجتمعك وبيتك، لأنّ «الولد على سرّ أبيه» و«كيفما تكونوا يولّىٰ عليكم»، فإذا ما تصرّفت على هواك، من دون رادع من دين، أو وازع من ضمير، أو رباط من خلق، أو التزام بعقل ووعي، وجاء ولدك بما لا ترضاه، فلا تلومنّ إلّا نفسك، ولا تُحمّل الولد فوق طاقته، لأنّه صمّم بالحجم والشكل الذي أنت حدَّدته، لا غيرك.

بقي أمر ليس أقل أهميّة:

إنّ الطفل الذي وُلِد حديثاً، كان محصوراً في رحم أُمّه وقد كبر وضاق به الرحم، فخرج منه ليحلّ ضيفاً على الحياة بما تتسع، فهو أشوق ما يكون إلى أن يُمدِّد يديه ورجليه، ويفتح ما استطاع فمه وأُذنيه، ويُوسِّع من بؤبؤي عينيه ليرى العالم من حوله.

إنّ هذا الطفل ولد ليعيش حُرّاً، فاعطه حرِّيّته ليُجرِّبها على هواه، فهو لايعرف قيداً، ولم يُحدِّد حركته دين، أو قانون، أو سلطة.

لقد كتب الله لهذا الولد في سنيه الأُولىٰ، أن يكون أميراً، فهو مختاره ومخلوقه المكرّم، الذي تحنو إليه جميع النفوس لتحيطه بنظرات العطف والرحمة، وتواجهه الوجوه وهي نضرة مبتسمة، فلا ينبغي أن نُعكِّر صفو هذا الوليد بنظرات غضب وضجر، أو أصوات شجار وجدل، ولا يليق بهذا الطفل الرحيم أن يضم إلى صدور حاقدة أو حاسدة.

إنّ الطفل في سنيه السبع الأُولىٰ بمقدار ما يمارس حرِّيّته، فإنّه سيكون أكثر استعداداً لضبط سلوكه وتحديد تصرفاته في سنيه اللاحقة، لأنّ نفسه قد شبعت لتتحمّل الصوم، وإنّ أطرافه قد تمددت بما يسعها أن تنقبض بسهولة.

إذن، دع الطفل يلعب ويمرح، دعه يحبّ الحياة، ودعه يستنشق الحرِّيّة، ولا تُعَجِّله بالأوامر فيضجر، ولا تُبَكِّره بالعقوبات فيتمرّد.

إنّه لايعي ما تعي ولا يفهم ما ينبغي فعله، إلّا بمقدار ما تعمله أمامه من تصرف مناسب، وإذا كان الله تعالىٰ قد عفاه، فلِمَ تحاسبه وتعاقبه بأمر ليس له عقل يعيه أو إرادة تعينه؟

إنّ الأطفال الذين لايأخذون حقّهم من الحرّيّة في تلك السنوات سيظلّون يشعرون بالكبت والحرمان، حتى سنين متقدّمة من أعمارهم.

ألا ترىٰ بعض الكبار يتحسّرون على أيام طفولتهم الضائعة، وألا تعتقد أنّ اتساع رقعة الكآبة في العالم اليوم قد يكون ناتجاً عن قلّة مساحة الفرح والنشاط عند الأطفال، الذين يُبَكَّر بهم إلى المدارس ولا يحظون بالفرص الممتعة التي كان الأطفال سابقاً ينعمون بها في رحم الطبيعة وأحضان الجدّات وحكاياتهنّ اللطيفة، مع شدو الزرّاع صباحاً وترانيم الأُمّهات مساءً.

إذن، لتكن لنا عودة مع الرسول الكريم(ص)، وهو يقول: «مَن كان له صبي فليتصابىٰ له»[1].

وانظر ماذا كان يفعل الرسول(ص) مع حفيديه، الحسن والحسين، سيّدي شباب أهل الجنّة:

يقول جابر الأنصاري: دخلت على النبيّ(ص) والحسن والحسين على ظهره وهو يحبو لهما ـ يلعبهما ـ[2].

إنّ هذه الصورة تُوضّح لنا صورة التعامل المطلوب مع الأطفال الصغار، إنّهم لايفهمون لغة الكلمات والأوامر.. إنّهم يفهمون لغة الحب بالشكل الذي يبديه الأبوان في رقتهما ونزولهما إلى عالمهم الصغير في حجمه، الكبير في محتواه.

---

١ ـ كنز العمال: ح٤٥٤١٣.

٢ ـ البحار: ج٤٣/ ص٢٨٥.

إنّ عالم الطفل قد يكون لعبة، أو أنشودة، أو تدحرج وزحف ومشي وركضة، ولكنه عالم كبير، لأنّ هذا الصغير الذي نرعاه، قد يكون ولياً من الأولياء، أو عالماً مُبدعاً من العلماء، أو حاكماً عادلاً، أو إنساناً خلقه الله وأحبّه وأكرمه، فلِمَ لانحبّه ونكرمه.

إذن، مرحلة الطفولة الأُولىٰ مرحلة حسّاسة وشفّافة ـ بالمعنى الحديث ـ ولابدّ أن يكون المحيط الذي يُرعىٰ فيه، محيطاً نظيفاً وآمناً ولطيفاً وفرحاً وممتعاً، حتى يقبل الطفل الجديد على الحياة وهو يحبّها، ويأخذ إنطباعاً حسناً وجيِّداً عن ناسها ومناحيها.

المرحلة الثانية: دخل الولد السابعة من عمره وشارف على إتمامها، وقد اشتدّ عوده وقويت بنيته وتدرّبت حواسه على اكتشاف الطبيعة وحقائقها، وتفتّحت ذهنيته لإستقبال المعلومات ونتائجها.. فهذا وقت زرع مسائل العلم ونشر بذور المعرفة، وتربيته وإعداده ليكون شخصاً (رشيداً)، ولكن ليس ذلك في ليلة وضحاها، وإنّما خلال برنامج يمتد لعدّة سنوات.

إنّ الولد في هذه المرحلة يكون قد خرج من مرحلة الطفولة الساذجة والتي ينظر فيها إلى الدنيا من خلال والديه، ويقيس حُسن الأشياء وقبحها بالمعايير التي يتعامل بها أبواه.. يخرج من هذه المرحلة إلى العالم الخارجي فيحاول أن يتعرّف على ما حوله من أشياء وأشخاص، ومن ثمّ يحاول أن يُكوِّن لنفسه خُطّةً خاصّة به، تنمو تدريجياً بإزدياد معلوماته ومعارفه.

ولذا فإنّ من الطبيعي أن يبدأ الطفل بالسؤال عن كثير من

الأشياء، وربّما أحرج والديه ببعض أسئلته، ومن الطبيعي أيضاً أن تكون إجابات والديه، أو غيرهما، غير مقنعة له أحياناً، ولذا فهو يطلب المزيد من الإيضاح والتفصيل.

إنّ الولد بدأ يتلقّى المعلومات فلابأس بأن نبادره بها، ولكن بالمستوى الذي يتقبّله ويتفهّمه، فلا ينبغي أن نتخمه بالمعلومات، والأهم من كلّ هذا أن يتعلّم الولد كيف يتعامل معها، لا كيف يحفظها ويختزنها، فالمعلومات يمكن توفيرها اليوم بسهولة من خلال الموسوعات العلمية والحاسوب والإنترنيت وغيرها من وسائل الإتصال والإعلام، ولكن تقدّم الأفراد والشعوب يعتمد على القابلية على تطوير المعلومات والإستفادة منها في الوقت والمكان المناسبين.

إنّ من المؤسف له أن تعتمد المناهج الدراسية للكثير من دولنا على حشد أكبر قدر من المعلومات والإحصائيات في ذهن الطالب، في الوقت الذي تتجه فيه مناهج التعليم في الدول المتطورة إلى تنمية روح البحث والإستكشاف والدراسة والتحقيق عند الأولاد ومنذ سني الدراسة الأُولىٰ.

أمّا في مجال التربية، فإنّ طريقة التوجيه في هذه المرحلة أيضاً ينبغي أن تتطوّر وتتغيّر، فإذا كان الطفل في المرحلة السابقة يقدم على أمر أو يتجنّبه لمجرد أن أباه ـ أو أُمّه ـ يتعامل مع ذلك الأمر هكذا، وإذا كان الولد يتقبّل من والديه المعرفة بحسن الأشياء وقبحها بشكل تمريري دون تساؤل أو استفهام، كما يتلقّىٰ منهما

الغذاء والدواء، فإنّ الطفل في هذه المرحلة يبدأ بالتساؤل عن كنه الأشياء وطبيعتها، وعن علّة الرِّضا عن هذا الأمر أو السبب في رفضه.

إنّ عقل الطفل مصمم على قانون السببية والتعليل، واستقراء الحالات الجزئية وصولاً إلى المعارف الكلية، لذا ينبغي للأبوين أن يكونا في هذه المرحلة أكثر صبراً وأكثر سعةً في الصدر، ليقوما بتوضيح المسائل للولد مع بعض من التفصيل، غير المطول والممل، ولكن الوافي والمقنع للولد، مع بيان السبب، أو ذكر الأمثلة المختلفة الموضحة للغرض، والتدرُّج في ذلك، مع تقدّم نمو الولد ونضجه.

في هذه المرحلة، من المهم جدّاً أن نتعامل مع الولد كإنسان ناضج، في الأسلوب والبيان، لا كطفل صغير.. وكما إنّ الراشدين يختلفون أيضاً في معلوماتهم ومستوياتهم، ويتطلّب لمن يخاطبهم أن يُبسِّط الأُمور ويُسهِّل الموضوعات إلى المستوى الذي يتقبّلونه ويفهمونه، كذلك الأطفال، بحسب أعمارهم وتطوّر شخصياتهم.

لقد جاء في الحديث عن رسول الله(ص): «إنّا معاشر الأنبياء أمرنا أن نُكلِّم الناس على قدر عقولهم».

والمُراجع للقرآن الكريم، بما يحمل من كنوز معرفية عظيمة وطريقة نزوله وأسلوب بيانه، يستفيد دروساً غنيّة وقيِّمة في طريقة التربية والتعامل مع الناس عموماً ومع أولاده بشكل

خاص.

من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وقُرآناً فَرَقناهُ لِتَقرأَهُ على النّاسِ على مُكْثٍ ونَزَّلناهُ تَنزيلاً﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿كِتابٌ فُصِّلتْ آياتُهُ قُرآناً عَرَبيّاً لِقَومٍ يَعلَمون﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ويَضرِبُ اللهُ الأمثالَ لِلناسِ لَعلَّهم يَتَذكَّرون﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿نحنُ نَقُصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ بما أوحَينا إليك هذا القُرآنَ..﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿فَاقرأُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ القُرآنِ..﴾[5].

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تؤكّد على التدرُّج وعدم التعجيل، والتبيين والتيسير والتفصيل، والإستفادة من القصص والأمثال ومختلف أساليب البيان، وكلّ ذلك لغرض الإستهداء بالذِّكر الحكيم بما يناسب عقول الناس وقلوبهم.

والهدف الذي ترمي إليه الآيات ليس التغذية بالأفكار الحقة عن طريق حشد المعلومات وتكديسها، وإنّما الغاية والغرض هو تحريك العقول وتدريبها لكي تصل إلى الحق من القول والصحيح من الفكر، بما وهبه الله تعالىٰ لنا من مواهب واستعداد لذلك، وكذلك

---

١ ـ الإسراء/ ١٠٦.

٢ ـ فُصِّلت/ ٣.

٣ ـ إبراهيم/ ٢٥.

٤ ـ يوسف/ ٣.

٥ ـ المزمّل/ ٢٠.

إيجاد الحالة النفسية والفضاء الأخلاقي المناسب.. فالهدف الدراية لا الرواية، والتدبُّر في الآيات لا مجرد التلاوة.

لذا لانجد كتاباً دعا إلى التفكُّر وإعمال العقل كالقرآن.. فانظر لغاياته من آياته، إذ نقرأ في خاتمتها تعابير مثل: (لعلّكم تتّقون)، (لعلّكم تتفكّرون)، (لعلّكم تهتدون)، (لعلّكم تشكرون)، (لعلّكم تعقلون)، (لعلّكم تفلحون)، (لعلّكم تذّكّرون)، (لعلّكم ترحمون)... إلخ، إلى عشرات الآيات المعلّلة، والتي فيها مزيج من الأهداف المحرِّكة والمحفِّزة للعقل والقلب، للفكر والجنان، للرأي والوجدان، كي يجتمع الدليل العقلي مع الإحساس العاطفي، لينتج عنهما معرفة الحق واتباعه، وتشخيص الباطل واجتنابه.

والأصل في كل شيء التدرُّج، سواء في التعليم أو التربية، لأنّ المرحليّة سنّة كونية وإلهية، والولد ينهىٰ ويدرّب تدريجياً، دون أن يتخم بالمعلومات أو تصب عليه الأوامر والنواهي، لأن (كل ما زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه)، فربّما ولَّد الضغط عليه ارتداداً في نفسه ليكره الدرس أو النفس، إذا حمّل ما لايُطاق.

والواقع الذي يجب الحذر منه، هو أنّ كثيراً من الآباء المتعلّمين يخطأون في هذا الجانب، إذ إنّهم يتوقّعون من الأولاد اللّحاق بهم بأسرع ما يمكن وعدم تفويت الفرص التي فاتتهم، وبالتالي يطلبون من الأولاد ما هو فوق طاقتهم من الدراسة، أو يريدون منهم اتباع سلوك متزنٍ وملتزمٍ لايناسب أعمارهم، وهذا وذاك يُعقِّد الأولاد ويُسبِّب بنحو وآخر انتكاسهم، ولذا قد نجد أولاداً

كسولين لآباء متعلّمين، أو نواجه شباباً منطوين وانعزاليين ينتمون إلى أُسر إجتماعية بارزة.

كما ينبغي ملاحظة أنّ الأولاد مختلفون في الإتجاهات والإستعدادات، وهكذا خلقهم الله لتسير بذلك عجلة الحياة وهي تتطلّب ألواناً متعدِّدة من المهن، ولا يمكن إدارة المجتمع إلّا مع وجود تدرُّجٍ في المستويات، كما قال تعالىٰ: ﴿ورَفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذَ بعضُهُم بعضاً سُخريا﴾[1].

والوالد الذكي، وكذلك المجتمع الناضج، هو الذي يستطيع أن يُوفِّر الأجواء المناسبة لتفتّق قابليات الأفراد لتتجه بما يتفق مع ذواتهم وميولهم واتجاهاتهم، وبذا يكون التوفيق والإبداع.

ولا ينحصر ذلك بتخصص معيّن أو مهنة مشهورة، فلربّما يسعد مزارع بعمله وينتج ما ينفع بلده ويُقدِّم لنفسه وأُسرته ما لايُحقِّقه آخرون محسودون على عناوينهم.

وكذا هؤلاء يوفقون لو أنّهم فعلاً يعملون في الحقول التي تناسب اتجاهاتهم العلمية أو قابلياتهم العملية.

والذي من المهم التنبيه عليه: هو أنّ الولد في المرحلة الثانية يميل إلى أن يستطلع الأُمور بنفسه ويُجرِّب الأعمال دون أن يأخذها جاهزة من غيره، على طريقة انظر وحاول (Try & See)، وقد يخطأ هنا وهناك، ومن الطبيعي أن يحاسب على أخطائه،

---

١ ـ الزخرف / ٣٢.

خصوصاً بعد إعذاره وإنذاره، ولكن ليس صحيحاً التغليظ والتشديد عليه، بالشكل الذي يؤدُّي إلى أن يتستّر على أخطائه، أو يميل إلى الكسل ويفقد القدرة على المبادرة.

إنّ خلق جو شديد من المحاسبة يؤدّي بالأولاد إلى أن ينأوا بعالمهم بعيداً عنّا وأن يمارسوا الخداع معنا، بالتظاهر بما يرضينا، ومواصلة حياتهم السرّية كما يريدون.

ولا ننسىٰ بأنّنا كُنّا في عمرهم وقد أخطأنا كما يخطأون، وهم أحوج إلى مَن يكون منفتحاً عليهم ويتفهّم أوضاعهم بواقعية، ليساعدهم على الخروج من الخطأ بشجاعة وصدق.

ولا ننسىٰ أنّ مؤشّر الرحلة يتّجه في هذه المرحلة نحو بلوغ الولد ورُشده، وبالتالي إعداده لتحمُّل مسؤولياته الشرعية والقانونية والإجتماعية، وهذا ما ينبغي تأهيله له كلّما اقترب الولد من سنّ البلوغ.

الإنتقالة الكبرىٰ والحرجة:

في نهاية المرحلة الثانية، يكون الولد بالغاً أو على مشارف البلوغ، ولو كانت أسس التربية صحيحة ووسائل التعليم ناجحة، فإنّ الولد ـ إبناً كان أم بنتاً ـ ينبغي أن يكون قد أصبح راشداً أيضاً في تلك السن، أي أن يكون البلوغ والرُّشد مترادفان ومتقاربان.

ولكن هناك فترة حسّاسة جدّاً لابدّ أن نقف عندها قليلاً الآن وطويلاً لاحقاً، وهي بدايات فترة المراهقة والبلوغ.

إنّ المبدأ الأساس الذي يجب أن يعلم هنا هو أنّ الولد لكي يكون مسؤولاً عن تصرفاته، لابدّ أن يكون مختاراً فيها.. ولكي يكون مختاراً، فلابدّ أن يكون بنحو من الأنحاء أنانياً يحبّ ذاته وشخصاً متميِّزاً بنفسه وتصرفاته.

وذلك لأنّه إذا أحبّ ذاته اختار لها ما ينفعها ولا يضرّها، وإذا تميّز بشخصية وتفرّد برأيه، لم يسهل انقياده لذي وذاك، ولم يتبع برايه أحداً دون إعمال لفكره وعقله، ولا يعمل عملاً دون وعي أو بلا إرادة.

وبإختصار: لكي يكون مسؤولاً عن تصرفاته، محاسباً على أعماله، لابدّ أن يكون هو الذي يُفكِّر وهو الذي يُقرِّر، بنفسه، دون أن يسمح للآخرين أن يفكُّروا ويقرُّروا نيابة عنه.

ومن هنا، فعلىٰ مشارف البلوغ ولكي يؤهِّله الله تعالىٰ لتحمّل مسؤولية تصرفاته، فإنّ الولد يتجه بشكل طبيعي إلى الإعتداد بالنفس وعدم الإنصياع بسهولة للأوامر وإلى محاولة أن يكون له رأي واحترام خاص به.

ومن أجل ذلك، فإنّه يتجه بنحو وآخر إلى تأكيد ذاته واستقلال شخصيته، كأن يميل إلى التفرُّد بالسكن والإعتزال بعض الوقت عن العائلة، والخروج لوحده، وانتخاب أصدقائه بنفسه، وعدم الموافقة والمطاوعة مع الأُسرة في بعض مختصاته وملابسه ومشترياته.

إنّه يريد أن يعلن للجميع أنّه موجود، ليمارس ابتداءً نوعاً من الحكم الذاتي داخل بيته ومع أُسرته، إستعداداً للإستقلال المالي والإجتماعي مستقبلاً.

إنّه يُريد أن يكون رجلاً بكمال الرجولة، وإنّها تُريد أن تكون إمرأة بكمال الأنوثة.

إلّا أنّ من المؤسف له أنّ بعض الآباء والأُمّهات لايتفهّمون متطلّبات مرحلة نمو ولدهم، فيعتبرون ولدهم متمرِّداً، وأنّ أخلاقه قد تبدّلت، وأنّه لم يعد ذلك الولد المطيع.

إنّ على الآباء والأُمّهات أن يبتهجوا ويحتفلوا ببلوغ ابنهم مرحلة الرجولة وأنّه فحل وبطل يملأُ العين وله رأيه وقراره.. لا أن يغتمّوا بذلك، وكذا الحال بالنسبة إلى بلوغ البنات.

إنّ بعض الأُمّهات يُرِدنَ الولد أن يبقىٰ طفلاً، ولا يعلمنّ أنّهنّ بسلوكهنّ هذا يُسبِّبن وهن الولد وبقاءَهُ ضعيفاً، فلا يستطيع أن ينهض بأعبائه مستقبلاً، وسيكوننّ شريكات في فشله وتأخُّره في المجتمع.

وبعض الآباء يفتخر بأن ولده، الذي بلغ وكبر، لا يقول له (لا) أبداً، ولا يضع كلاماً فوق كلامه، ولا يعلم هذا الأب أنّ من كمال التربية والإعداد النفسي أن نُدرِّب الولد على قول (لا) عندما يتطلّب الموقف ذلك، وإلّا كان الولد تابعاً لغيره، مُستَغَلاً من قبل الآخرين طيلة حياته.

ألا ترىٰ أنّ إستبداد الحُكّام فى بعض البلاد وإستجابة بعض الشعوب لطغاتها قد يكون بسبب التربية الأبوية الصارمة، والقائمة على طاعة الولد وقوله (نعم) دائماً؟

إنّ إصطدام الأبوين مع أبنائهما المراهقين، شباباً كانوا أم شابات، يؤدِّي إلى أحد طريقين:

الأوّل: إنتكاس حالة النضج الذكوري عند الإبن، والأنوثي عند البنت، وبالتالي إعاقة تكاملهما النفسي والإجتماعي.

إنّ مثل ذلك كمثل نبتة نمت طالعة نحو الأعلىٰ ولكنها اصطدمت بالسقف، فعادت منتكسة، مواصلة نموّها ومسيرها نحو الأسفل.. وهذا الإنتكاس قد يؤدُّي إلى أن يكون لدينا رجالٌ بخصائص ذكورية غير متكاملة، وأحياناً ضعيفة، وكذلك العكس.. أي أفراداً مزدوجي الشخصية.

ويؤدِّي هذا إلى المزيد من الكبت والعُقَد النفسية، بل الأمراض النفسية، والمعاناة المستمرة من هذه الأحوال.

الثاني: تمرُّد الولد على الوالدين، وخروجه عن طاعتهما، وهذا ما نجده من كثرة الأولاد المنفصلين عن أُسرهم، أو المنقطعين عنهم، خصوصاً بعد زواجهم، وذلك لإستمرار معاملة الآباء لهم، كأولاد دون عدم احترام شخصياتهم وتفهُّم تطلّعاتهم، حتى أن من الأمثال الدارجة في البلاد العربية أنّ (الوَلد وَلد ولو صار حاكم البلد).

والسبب يعود في الكثير من تلك الحالات إلى الأبوين، لأنّهما يدفعان الولد إلى التمرُّد بسبب الإعاقة المستمرة لمسيرته والوقوف في طريقه، ومحاولتهما المستمرة لإرغامه على اتباع رأيهما، دون اعتبار لرأيه واختياره ومصلحته.

ولذا ورد في الحديث الشريف: «يلزم الوالدين من عقوق الولد ما يلزم الولد لهما من العقوق»[1].

إنّ الوالدين الراشدين يهدفان إلى الوصول بالولد إلى البلوغ والرُّشد، أي المرحلة التي يكون الإبن رجلاً مستقلاً ناهضاً بمسؤولياته، متحمّلاً لأعبائه، وأن تكون البنت إمرأة راشدة تتصرّف بثقة بالنفس وشجاعة وحكمة، دون الحاجة إلى وصاية أو ولاية.

وإنّ أيّة إعاقة لرشد الولد يعدّ بنحو وآخر خيانة للأمانة التي حملناها وإضراراً بالولد الذي ندَّعي حبّه، وإضراراً بأنفسنا قبل غيرنا، لأنّ الولد سيبقىٰ عبئاً متّكلاً علينا، ونتحمّل نحن من حيث نريد أو لانريد وزر تصرُّفاته، لأنّنا لم نؤهّله للموقع الذي أراده الله له بأن يكون واقفاً على قدميه، رجلاً راشداً، أو إمرأة راشدة، قادرين على إدارة أُمورهما، بل مساعدة الآخرين، وفي مقدّمتهم: والداهما وأبناؤهما.

---

١ ـ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص ٢٢٠، الفصل السادس، في الأولاد وما يتعلق بهم، ط. مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، الطبعة السادسة، ١٩٧٢م.

المرحلة الثالثة: الوزارة أو الرفقة والصداقة.. ففي هذه المرحلة يتجه الولد إلى الأصدقاء، فهو يبحث عمّن يكون بمستواه، يتعاطىٰ معه الفكر وتجارب الحياة، يبادِلُه الحديث والمشورة، واللهو وقضاء ساعات الفراغ، ولا يحب فيها أن يتلقّى الأوامر والتوجيهات.

لقد قرأت قصّة لازالت عالقة في ذهني: كان أحد الشباب يتحدّث مع زميله، وسأله عن رأيه في مسألة معيّنة، فأجابه صديقه: عليك العمل هكذا، واجتنِبْ غيره... إلخ، مستعملاً أفعال الأمر وأدوات النهي في اللغة، فما كان من الشاب إلّا أن أجاب صديقه: أنت تتكلّم معي كما يتكلّم جدّي: (افعل كذا ولا تفعل كذا).

والقصة واقعية في معناها إلى حدٍّ كبير.. فالشباب في تلك السن، حتى وإن لم يصرِّحوا بذلك، إلّا أنّهم يكرهون أن يتحدّث معهم بلغة الأمر والنهي، لأنّهم يحبّون أن يكون لهم رأيهم الخاص، لسان حال أحدهم قول الشاعر:

ليس الفتىٰ مَن يقول كان أبي

إنّ الفتىٰ مَن يقول هاأناذا

وفي تلك الحال، يستطيع الوالد أن يكون الصديق الأوّل والمفضّل لولده، إذا استطاع التعامل معه بلباقة وذكاء، والتعامل مع حقيقة أنّ الولد قد كبر وبلغ، ورشد ونضج، بالمستوى الذي يكون فيه وزيراً للأب في أُموره، رفيقاً وصديقاً في دربه.

وليست المسألة أُمنية عابرة، بل لابدّ لها من مقدّمات تترتّب عليها إستحقاقات، ومن أهمّها أن يكون الولد قد أهّلناه وساعدناه ليصل إلى المستوى الذي يعتمد فيه عليه، ويستطيع بعقله أن يُميِّز ما ينفعه ممّا يضرّه، وما يصلح دنياه وآخرته، ويتصرّف في ماله ومال غيره بالحق والحكمة، هذا أوّلاً.

الثاني: أنّ أسلوب تعامل الأب مع الإبن، ينتقل من الحالة العمودية، أو المائلة بزاوية كبيرة، إلى الحالة الأُفقية، أو القريب منها، لتكون الأوامر إرشادات، والمطالب إرفادات، بمعنىٰ: كما يتكلّم الصديق مع صديقه، لأنّهما أمام الله متساويان في المسؤولية، فكلّ يحمل وزر عمله لا غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿يومَ يَفِرُّ المَرءُ مِن أخيه * وأُمِّهِ وأبِيه﴾[1].

ولذا فإنّ عليه أن يتبيّن صلاحه، مع الإستفادة من مشورة غيره، والمساعدة منه والمعاونة معه: فإذا ما وجد الأب من الإبن خطأً أو اشتباهاً نبّهه بلطف وأرشده إلى الصواب بمودّة، يحفظ فيها حرمة ولده الذي بات رجلاً مسؤولاً، أو إمرأة مسؤولة.. ولا شك أنّ الأُمور، حتى بين الصديقين، قد تأخذ أحياناً طابعاً جدّياً، وشدّاً وحلّاً، ولكن الخط العام لسلوكيهما وطريقة تعاملهما هو هذا.

ومن الطبيعي أنّ الوالد تبقىٰ له حرمته وفضله ومكانته، وأنّ

---

١ ـ عبس/ ٣٤ـ٣٥.

على الولد حفظ ذلك وطاعته فيما لا معصية لله فيه والبرّ بوالديه، فإنّه من أهم واجباته الشرعية.

ولكن المقصود هنا هو أسلوب التعامل المثالي، والذي يجب رعايته من الطرفين، فإذا ما وجد الولد من والده خطأ نبّهه عليه بكل لطف واحترام، ولا يتبعه في خطئه، لأنّه مسؤول عن نفسه.. فكما إنّ الصديق لايعفىٰ من المسؤولية إذا أطاع صديقه في خطأ أو ذنب، كذلك الولد لايعفىٰ منه ـ وهو قد بلغ ورشد ـ باتباع رأي والده.

إنّ الولد في هذه المرحلة ينتقل من حالة الإتكاء المالي على الأب والعمل برأيه.. من إمارة الأب، إلى حالة الإستقلال في الرأي والتصرف المالي، الذي هو عنوان لإدارة شؤون حياته بنفسه، وطبيعي أنّ هذا لايتم بين ليلة وضحاها، وإنّما يتم تدريجياً وبحسب ازدياد النضج العقلي للولد وتكامل خبراته العملية.

إنّ الوالد الموفق في تربية ولده هو الذي يُرحِّب بتكوّن شخصية ولده ونضجها، وبالتالي استقلاليتها وتحمّلها لأعباء الحياة بصورة منفردة، وترافق الولد عن كثب، عين الوالد الرحيم، لتُسدِّد وتُؤيِّد خطواته الصحيحة، وتُصحِّح وتُقوِّم زلّاته.

إنّ الوالد الموفق هو الذي يُصرِّح بإرتياح أمام ولده والآخرين بأن إبنه قد أصبح رجلاً وهو الذي يُقرِّر مصيره وهو الذي يُحدِّد مستقبله، وهو أهل لذلك.. وأنّ إبنته البالغة قد أصبحت إمرأة

راشدة تستطيع أن تختار لنفسها الحياة التي ترضاها وأنّ عقلها أكبر من جسمها، وهي أهل لذلك.

أمّا طريقة مصادرة حرّيات الأولاد الراشدين ومحاولة الإستحواذ على كل ما يتعلّق بهم من مسائل تهم حياتهم دون غيرهم، والتفكير نيابة عنهم، في اختيار الزوج، والعمل، والسكن... إلخ، إنّ هذه الطريقة تدلّ على عدم نجاح الوالد في إيصال أولاده إلى مستوى الثقة والإعتماد على النفس والنضج في التعامل مع الأُمور، وهو الهدف الأساس من كل برنامج تربية، فضلاً على أنّها تُمثّل نوعاً من الأنانية والإستبداد، وإن ظهرت بمظهر الحفاظ على الولد ومصلحته.

مبادئ أساسية في منهج التعامل

بعض هذه المبادئ أساسية لنجاح وحيوية واستدامة أيّة علاقة بين إنسانين، صديقين كانا أم زوجين، أخوين كانا أم والد وولده، ولكن لمّا كانت العلاقات الأسرية تجري في دائرة صغيرة ذات تماس يومي مباشر، فإنّ هذه المبادئ كانت أكثر أهميّة وحسّاسية، خصوصاً أنّ أكثر العلاقات القريبة وتحت عنوان (بين الأحباب تسقط الآداب) ترفع فيه الحشمة والتكلُّف، فتكون تلك المبادئ ضحيّة هذه الرؤية الخاطئة والتي تؤدّي إلى تجاوز الحدود بين الطرفين ذوي العلاقة، وبالتالي تعرض العلاقة للمشاكل والخطر، لأنّ (الحدود تحفظ الوجود).

فمن المؤسف له أنّ كثيراً من العلاقات الزوجية والأسرية تنهتك وتنحل وتتعرّض للأزمات، لأنّ أحد أطراف العلاقة يتمدّد في حقوقه وامتيازاته على الآخرين، فلا يرىٰ حرمة لهم وأنّ عليهم تقديم الخدمات، دون أن تكون لهم حقوق وامتيازات، لذا فإنّ هذه المبادئ أساسية لإنجاح العلاقة وبلوغها المرام من تكامل الوالد في تربيته، والولد في نشأته.

ومن أهم هذه المبادئ:

١ ـ تقابل الحقوق والواجبات:

فليست هناك علاقة باتجاه واحد، أي أنّ طرفاً واحداً يستفيد من الإمتيازات، وطرفاً آخر عليه الواجبات وتقديم التضحيات، بل إنّ كلّ العلاقات قائمة على التقابل، على قاعدة (إخدِم تُخدَم وإحتَرَم تُحتَرَم).

فعن رسول الله(ص): «يلزم الوالد من الحقوق لولده ما يلزم الوالد من الحقوق لوالده»[1].

ورعاية هذا المبدأ يُضفي على العلاقات توازناً عادلاً يشعر فيه كل طرف بإنصاف الطرف الآخر وحقّه، فالوالد الذي يراعي حقوق ولده سيلقى بلا شك من ولده احتراماً مضاعفاً ورعاية كبيرة لحقوقه كوالد، لأنّ (الإنسان عبد الإحسان) كما قيل، والوالد قدوة ومثال للولد، فإذا ما وجد المحكوم إنصاف الحاكم واحترامه لحقوق الناس، كان أجدر بالإحترام والإجلال ورعاية حقّه من غيره.

وممّا ورد من الأقوال المأثورة في حقوق الجانبين، ما رُوِي عن الإمام موسى الكاظم، قال: سأل رجل رسول الله(ص): ما حق الوالد على ولده؟ قال(ص): «لايُسمِّيه بإسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسبّ له»[2]، أي لا يفعل ما يصير سبباً لسبّ

---

١ ـ كنز العمال: ح ٤٥٣٤٤.

٢ ـ بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ٤٥.

الناس له.

وعن علي بن أبي طالب، قال: «إنّ للولد على الوالد حقّاً، وإنّ للوالد على الولد حقّاً، فحقّ الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء إلّا في معصية الله سبحانه، وحقّ الولد على الوالد أن يُحسِّن اسمه، ويُحسِّن أدبه، ويُعلِّمه القرآن»[1].

ورعاية هذه الحقوق لازمة من الطرفين، فإذا ما تجاوزها أحد الطرفين، فمن الطبيعي أنّ ذلك يُسبِّب الضرر بالطرف الآخر، وبكلاهما، لأنّه سيُعكِّر جوّ العلاقة ويخرجها عن التوازن ويؤدِّي بها إلى الفعل والإنفعال السيِّئ.

وليست من حقوق الوالدين الكثير ممّا يظنانه في مجتمعاتنا حقّاً، فإنّ بعض الآباء يظن بأنّ من حقّه أن يمنع ابنه من الزواج بمن يرغب فيها، وأن يجبره على الزواج بأخرى لايريدها، ويعتبر معصية الولد له عقوقاً وخروجاً عن طاعته، وبالتالي طاعة الله.

وهذا وهم وجهل بالأحكام الشرعية، التي لاتلزم الولد بذلك، فضلاً عن العقل والإنصاف، فإنّ للأب ولاية على ولده ـ قبل البلوغ ـ، فهو في إمرته، وهو مسؤول عن تصرفات ولده. أمّا بعد البلوغ والرُّشد، فإنّ للولد استقلاله الشخصي الذي يتحمّل بموجبه عواقب تصرفاته، لأنّ للولد ـ الرجل والمرأة ـ حياته التي هو سيعيشها، لا أبواه، وبالتالي فإنّ القرار بيده دون غيره، وإن كان

---

١ ـ نهج البلاغة، باب الحكم، برقم ٣٩٩.

في استشارة الأبوين غنىً وتجربة، ولكن الرأي في الأخير رأيه والقرار قراره.

وكذلك ما يكثر في بلادنا من إجبار الولد على دخول فرع معيّن في الجامعة دون غيره، وعلى السكن في بلد دون الرحيل إلى آخر للدراسة وطلب العلم أو العمل، وأمثال ذلك.

إنّ كل هذه الأُمور يكون البتّ فيها، بالنسبة للولد البالغ، لنفسه دون غيره.. ولا تنافي بين أن يعمل الولد الراشد برأيه في مثل هذه الأُمور، مع رعاية حرمة الأبوين والبرّ بهما، وهو ما يظنّه كثيرون، فإنّ البر بالوالدين والإحسان إليهما واجب مقدّس، كما قال تعالىٰ: ﴿وقَضىٰ ربُّكَ ألّا تعبدوا إلّا إيّاهُ وبالوالدينِ إحساناً إمّا يَبلُغَنَّ عندكَ الكِبرَ أحَدُهما أو كِلاهُما فلا تقُل لهما أُفٍّ ولا تَنهَرهُما وقُل لهُما قولاً كريماً * واخفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ من الرَّحمةِ وقُل رَبِّ ارْحَمهُما كما رَبَّياني صَغيراً﴾[1].

بل هو من أفضل الطاعات، فقد رُوِي عن عبدالله بن مسعود، قال: «سألت رسول الله(ص): أي العمل أحبّ إلى الله؟ قال(ص): الصلاة على وقتها، قلت: ثمّ أي؟ قال(ص): برّ الوالدين»[2].

وعنه (ص): «مَن سَرَّهُ أن يُمَدَّ له في عمره ويزاد في رزقه فَلْيَبَرَّ

---

١ ـ الإسراء/ ٢٣ ـ ٢٥.

٢ ـ رواه البخاري ومسلم.

والديه وَلْيَصِلْ رحمه»[1].

وغير ذلك الكثير ممّا رُوِي بهذا الشأن، والذي يؤكِّد على احترام الوالدين وبرّهما، برّين كانا أم فاجرين، مسلمين كانا أم مشركين، ومساعدتهما.. إلّا إنّ ذلك لايعني أن يعتقد الوالد بأنّ من حقّه أن يفرض على الولد شكل حياته واختيار زواجه وأسلوب عمله ورأيه وفكره وذوقه ومزاجه، لأنّ كل هذه الأُمور هي من مختصات الولد، وهو الذي سيتحمّل تبعاتها خيراً بخير، وشرّاً بشرّ، وعليه دون غيره البت فيها، وإن كان لايستغني عن مشورة غيره، وربّما مساعدتهم، وفي مقدّمة هؤلاء والديه.

وبين يدينا نص للإمام جعفر الصادق يُبيِّن المراد من قوله تعالىٰ: ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾، قال: «الإحسان أن تُحْسِنَ صحبتهما، وأن لاتكلِّفهما أن يسألاك شيئاً ممّا يحتاجان إليه وإن كان مستغنين»[2].

وفهم ماهية الحقوق هذه وحدودها يساعد على أن يعرف كل طرف حدّه، فلا يتمدّد الوالد في أوامره ونواهيه إلى ما يزاحم حياة الولد ويضايقه، فيضطرّه إلى معصيته وعدم احترام رأيه، وأيضاً أن يفهم الولد واجباته في معاملة والديه بالبرّ والإحسان، في نفس الوقت الذي يعرف فيه ما يخصّه ويعنيه دون غيره، ليتصرّف وفقاً

---

١ ـ الترغيب/ ج٣/ ص٣١٧، رواه أحمد.

٢ ـ الكافي: ج٢/ص١٥٨.

لما يراه صالحاً، فلا يضرّ بنفسه ولا بأهله، لأنّ الولد وقد كبر، لم يعد طفلاً، بل بات بالغاً رشيداً، كوالده، وله حقوقه وعليه مسؤولياته الشرعية والإجتماعية، كما إنّه قد أصبح ربَّ أُسرة وله زوجة وأطفال، ولهؤلاء عليه حقوقٌ وواجباتٌ يجب مراعاتها من جانب آخر، كما تجب عليه مراعاة حقوق والديه، وعليه التوفيق بين ذي وتلك، دون الإضرار بطرف لحساب طرف آخر، عملاً بالقاعدة الفقهية (لا ضرر ولا ضرار) في الإسلام.

٢ ـ التكريم:

قال تعالىٰ: ﴿ولقد كَرَّمنا بَني آدمَ وحَمَلناهُم في البَرِّ والبَحرِ ورزقناهُم مِنَ الطَّيِّباتِ وفَضَّلناهُم على كثيرٍ مِمَّن خَلَقنا تفضيلاً﴾[1].

منهج التربية في الإسلام يقوم على أساس أن يعرف الإنسان قدر نفسه ويحفظ كرامتها، فلا يهينها بالمعصية ولا يشينها بالرذائل، ولا يكون ذلك إلّا بإحترام الإنسان ورعاية حقوقه، حتى يستشعر قيمة نفسه ويعتز بإنسانيته.

إنّه المخلوق المكرَّم، الذي اختاره الله لخلافته على الأرض، فإيّاك أن تهينه، بل احفظ له شخصيته، سواء كنت أنت هذا، أم ابنك، أو أي إنسان آخر، «فالناس إثنان، إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»، كما يقول الإمام علي في وصيته لمالك الأشتر

---

١ ـ الإسراء/ ٧٠.

عندما ولّاه مصر.

وفي الإسلام أيضاً، أنّ الإنسان مهما أتىٰ من جرم، فلا يُهان، فالقاتل قد يقتل لجريمته، والزاني قد يُعاقب لسوء فعلته، ولكن لا يقال لهذا يا قاتل، ولا لهذا يا زاني، لأنّ كل منهما إنسان له كرامته، ولو حفظت له هذه الكرامة، لربّما عاد عن جريمته واستغفر لذنبه، وعاش صالحاً بقية عمره.. أمّا لو أهين وصودرت شخصيته، فإنّه من الممكن أن يواصل مشواره السيِّئ ذاك بقية عمره.

فحفظ العزّة والكرامة من أهم العوامل التي تحفظ للإنسان شخصيته وتُجنِّبه الوقوع في المكاره والمساوئ من القول والفعل، والعكس صحيح، لذا جاء في الأثر: «مَن هانت عليه نفسه فلا تأمنوه»، لأنّ الذي يذلّ نفسه ويرخصها عند هذا وذاك، يسهل عليه أن يبيعها للشيطان ويضعف ويتصاغر أمام أي إغراء من شهوة أو مال حرام، ليخون نفسه أو عائلته أو دينه أو بلده.

إذن: مهما صغر ولدك فلا تستحقره، ومهما عمل فلا تهينه.

إنّ من الممكن أن يعمل الولد عملاً يستحق عليه العقوبة[١]، ولكن يُعاقب ولا يُهان، لأنّ الإهانة هنا تنزل من كرامته وتضعف شخصيته وإرادته، فهي سوف تساعده على الوقوع في المزيد من الأخطاء، لا تجنّبها.

---

١ ـ المراد بالعقوبة هنا الحرمان من بعض الإمتيازات، لا العقوبة البدنية التي غالباً تؤدي إلى نتائج غير مطلوبة وتترك آثاراً سلبيّة على شخصية الولد طيلة حياته.

لقد مرَّ علينا أنّ من حقوق الولد على والده أن يُحسِّن إسمه، لكي لايكون محطّ إحتقار أو إستهزاء في المجتمع، ولقد مرَّ الرسول الكريم على رجل ومعه ابنه، فقال له(ص): «مَن هذا؟ قال: هذا ابني، فقال له الرسول: هلّا كرَّمته».

أي هلّا عرَّفته وقدَّمته بإحترام يشعر فيه بكرامته وشخصيته.

وممّا سبق نعلم مدىٰ خطورة وكراهة مناداة الأشخاص بأسماء أو صفات تُحقِّرهم، ويجب أن لانسمح لأنفسنا بتحقير أبنائنا بأي كلمة تمسّ كرامتهم أو تهين شخصياتهم، بل على العكس من ذلك، ينبغي أن ننادي الأولاد بأسمائهم بإحترام، ونخاطبهم بإكرام، وقد ندعوهم بالكنىٰ والألقاب، زيادة في إشعارهم بعزّتهم وقدرهم عندنا.

ومن المكمل لما سبق أن نتعامل مع أبنائنا وكأنّهم آخرون، فنبادرهم بالسلام، كي يبادرونا، ونحترمهم كي يحترمونا، ونستأذنهم فيما يخصّهم كي يستأذنونا، ونسمع لهم كي يستمعونا، وهكذا كلّما نريده منهم، نبادرهم به كما يبادلونا به.

أمّا الشخص الذي لايحترم الآخرين، فلا يتوقّع منهم أن يحترموه، وما يعطي الإنسان بيدٍ يأخذه بالأخرى (فكما تُدينُ تُدان)، وتلك سنّة جارية من سنن الحياة، فلا نَنْسَها.

٣ ـ الحب:

قد يكون من المستغرب أن نتحدّث عن الحب، كأساس في العلاقات الأسريّة، أو بين الوالد وولده، فَمَن مِنَ الناس لايحب أبناءه؟! إذ إنّ أساس تشكيل الأسرة وقوامها، يقوم على المودّة والرحمة، كما يقول تعالىٰ: ﴿ومِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لكُم مِن أنفُسِكم أزواجاً لِتَسكُنُوا إليها وجَعَلَ بَينكُم مودّةً ورَحمةً إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يَتَفكَّرونَ﴾[1].

آمنّا بالله تعالىٰ وصدق الله ورسوله، ولكن هذا الأساس الذي تقوم عليه الأسرة، لايراعىٰ حق رعايته، بل إنّه كثيراً ما يتزعزع، بل يتزلزل، ويسقط البناء على رؤوس ساكنيه.. لذا لابدّ من الإنتباه المستمر لرعاية هذا الأساس وتجنّب ما يضعفه ويوهنه، والتذكُّر دوماً بأنّه حجر الزاوية في بناء الأسرة ومصدر حيويتها وبقائها.

إنّ عطاء النبتة أن تزهر، وفائدة الشجرة أن تخضر وتثمر، وكذا الحب لابدّ أن يتجلّىٰ في السلوك وأن يتمظهر في القول والعمل، وإلّا إذا كان الحبّ كامناً في غيابة القلب، لايعلم به إلّا الله، فما اللطف فيه، ومَن الذي يحسّ بسحره وجماله؟

وإذا كانت الأقوال تُكذِّبها الأفعال، فمن الذي يُصدِّق بالشعارات والإدّعاءات؟

قل لزوجتك إنّي أحبّك، لأن «قول الرجل لزوجته أحبّك لن يخرج

---

١ ـ الرُّوم/ ٢١.

من قلبها أبداً»، كما يقول الإمام موسى الكاظم، من أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

وقَبِّل أولادك واشعرهم بحبّك لهم، فعن النبيّ الكريم(ص) أنّه قال: «مَن قَبَّل ولده كتب الله له حسنة، ومَن فَرَّحه فَرَّحه الله يوم القيامة، ومَن عَلَّمه القرآن، دُعِيَ بالأبوين فيكسيان حلّتين يضيء من نورهما وجوه أهل الجنّة»[1].

وعنه(ص): «مَن يُرضي صبياً صغيراً من نسله حتى يرضىٰ، ترضّاه الله يوم القيامة حتّى يرضىٰ»[2].

وفي مسند أحمد بن حنبل: كان رسول الله يُقبِّل الحسن والحسين، فقال أحدهم: إنّ لي عشرة ما قبّلت واحداً منهم قطّ، فقال(ص): «مَن لا يَرحم لا يُرحم».

إنّ الإسلام دين الرحمة، وآيات القرآن، تبتدئ بإسم الله الرّحمٰن الرّحيم، فمن أين جاءت هذه القسوة عند البعض، إن كانوا مسلمين؟ أهي عودة للجاهلية الأُولىٰ، أم هي جفوة وقسوة ارتضعوها وشابت عليها نفوسهم منذ الصغر، بالضرب والتقريع والإستبداد والإضطهاد، وهاهم يردّون الكيل كيلين على غيرهم من المستضعفين؟

فإذا كُنّا مسلمين حقّاً فلابدّ أن نُربِّي أبناءنا ـ وشعوبنا ـ على

---

١ ـ الكافي: ج٦/ ص٤٩.

٢ ـ كنز العمال: ح٤٥٩٥٩.

الرحمة منذ الصغر لأن «مَن لايَرحَم لايُرحَم»، كما يُقرِّر ذلك الرسول الكريم(ص).

والرحمة المطلوبة لاتستوفىٰ بالأقوال وإبداء مظاهر الحبّ والحنان، بل لابدّ أن تكون منهج تعامل، يحسّ به الطفل، في كل الأحوال، سواء أحسن أو أساء، فلا مساومة على حبّه والرحمة به لأن رأسمال الولد من الدنيا، هو حبُّ والدايه، وهما مأمنه ومسكنه وملجأه ومنجاه، وإذا ما أحسّ بفقدٍ في ذلك، ساده الإضطراب والقلق وهزّ ذلك وجوده، والذي قد يؤثر بشكل كبير على إستقراره النفسي ومستقبله الشخصي.

إنّ كلمة (لا أحبّك) يجب أن لايسمعها الولد، مهما فعل ومهما عوقب، فالعقوبة، مهما كانت قاسية، فإنّها أقلّ قسوة وضرراً من كلمة (لاأحبّك)، فحتىٰ مع العقوبة، فإنّ الولد يحب أن يَفهَم أو يُفَهَّم، بأنّها صادرة عن قلب محب له، وأنّها تُجرىٰ عليه رحمة به، كي يرتدع عن الخطأ وينأىٰ بنفسه عن المخاطر.

كما إنّ الطفل يجب أن يُعَلَّم ويقال له: إنّ حبّ الوالدين قد لايتزعزع ويضعف مهما عمل، ولكن ذلك لايعني أنّهما لايُغيِّران من سلوكهما تجاهه وتعاونهما معه.

إنّ الولد يجب أن يعرف أنّ إحسانه سيزيد من إحسان والديه إليه، وأنّ إساءته ستفقده المزيد من ألطافهما ومساعداتهما له، وستجلب له العقوبة، لأن «مَن أمن العقوبة أساء الأدب»، كما يقول

الإمام علي.

الحب قد يكون مطلقاً، والمحبّ قد يحبّ قاتله، ولكنّه لايساعده على القتل ولا يكافئه عليه، وبالتالي فإنّ مشكلة الأولاد المدلّلين، والذين كثيراً ما يؤول بهم الوضع إلى التمرُّد والطغيان، هو أنّهم كانوا يلقون الحماية والتشجيع بإستمرار، سواء أحسنوا أم أساءوا، ممّا دفعهم إلى الغي والفساد، وهذا ليس بحب حقيقي، لأنّ الحب الحقيقي يجب أن لايضرّ بالمحبوب، وهذا يضرّ به، بل يهلكه.

كما إنّ من الحبّ الضار أيضاً أن نُوفِّر لأطفالنا كل سبل الراحة، دون أن نجعلهم يمرّون بالمصاعب ويجرِّبون المتاعب، لأنّ هذا الحبّ سيجعلهم يفهمون الحياة بغير واقعها، ويتمتعون باللذائذ دون أن يعرفوا قيمتها، وسرعان ما يكبرون ويواجهون الحقيقة المُرّة، فلا أجسامهم تتحمّل العناء، ولا نفوسهم تصطبر المعاناة، وهم يريدون من الآخرين أن يقدِّموا لهم كل شيء على طبق من فضة أو ذهب، وهم يقدِّمون.. وهكذا فإنّ نهاية الكثير من المدلّلين إلى فشل أو تعاسة وشقاء.

٤ ـ العدل والإنصاف:

قيل: «العدل أساس المُلك»، وتختص هذه الحكمة بحكومة البلد وسياساتها، ولكنها تشمل نمط التعامل في كل إدارة ورعاية، والأسرة على أيّ حال، حكومة الإنسان المصغّرة ومملكته الأُولى، وطبيعة التعامل في داخل الأسرة هو الذي يُشكِّل بنحو وآخر

طبيعة السلطة في المجتمع، قال تعالىٰ: ﴿إنّ اللهَ يأمُرُ بالعَدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُربىٰ ويَنهىٰ عن الفَحشاءِ والمُنكرِ والبَغيِ يَعِظُكُم لعلّكم تَذكَّرونَ﴾[1].

وكلّ أب هو رئيس لأسرته، وكل أُم هي مديرة لبيتها، وكلاهما يتشاركان في سلطتهما وعليهما التعامل مع الأولاد بالعدل والإنصاف، كما نريد ذلك من كل حكومة وسلطة.

وأساس العدل هو التعامل بالمساواة مع أفراد الأسرة، بحيث لايُفضَّل ولد على آخر، ولابدّ من التوقف عند هذه النقطة، لأنّ فيها التباس عند الكثيرين.

فلا يستطيع معظم الآباء، إنْ لم نقل جميعهم أن يساووا بين أولادهم في الحب، إذ إنّ ميل القلب إلى هذا أو ذاك ليس بالأمر الإرادي، والقلوب بيد باريها، ونحن لانستطيع التحكّم في اتجاهات القلب وارتياحه لهذا الولد أو ذاك.

والأولاد ليسوا متشابهين في الصفات وغير متساوين في الملكات، ويمتاز بعضهم عن بعض في وسامته وجماله أو حُسن أخلاقه وأدبه، أو ذكائه وفراسته، أو أُلفته ومودّته، ممّا يجعل هذا يدخل القلب أكثر من ذاك، كما هو حال سائر الناس، فكيف يمكن أن نساوي بينهم في الحبّ ونعدل معهم؟

والواقع أنّ المطلوب ليس المساواة في الحب، ولكن هو

---

١ ـ النحل/ ٩٠.

المساواة في التعامل، في الثواب والعقاب، بين مَن تحبّ أكثر ومَن تحبّ أقل، لأنّ ميزان القلب قد يميل، ولكن ميزان العمل ومعايير التعامل يجب أن تكون عادلة، لاتتأثّر بالحبّ والبُغض، والقُرب والبُعد، كما هو المطلوب في المجتمع.

حاول أن تكون عادلاً في توزيع الوقت والحديث معهم.. وإذا جلست معهم، فوزِّع النظرات بصورة متقاربة.. وإذا أعطيت المال، فلتكن معايير تقسيمه عادلة تشملهم جميعاً دون استثناء أو تمايز.. وإذا أخذت هذا إلى حفل أو عشاء في مطعم، فخذ الثاني في الموعد التالي.

وممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ توزيع التكاليف قد يعتبرها الأولاد امتيازاً للمكلَّف وتشريفاً له، فيرون أنّ الوالد ـ أُمّاً أو أباً ـ يثق بهذا أكثر من غيره، ولذا ينبغي أن يلاحظ في تكليف الآخرين العدالة وتوزيعها عليهم، ولو كانت التكاليف متنوعة فلا بأس بذلك، لأنّ المطلوب إشعار الجميع بالثقة والنظرة الواحدة دون تمييز.

نعم، لو أساء أحدهم الأمانة أو لم يقم بالعمل المطلوب، فيمكن أن يؤخذ منه ويعطىٰ لآخر مع بيان السبب له، ليتّعظ ويعتبر، ولكن إشعاره بنفس الوقت بالمحبّة وأنّ الموقف ليس عدوانياً منه، بل لغرض تعليمه وتحسين أدائه.

وكذا الحال في المحاسبة، فإذا ما وضعت التزاماً، فعلى الجميع

أن يـلتزم بـه.. وإذا مـا فـرضت عـقاباً، فـعلىٰ كـلّ مسـيء يسـري مفعوله.. وإذا خفَّفت العقوبة، فخفِّفها لكل مَن يستحقها، لا بـذاتـه، ولكن بموضوعه، أي بعمله، وبَـيِّن ذلك للـجميع، بـمعنىٰ أن عـدم التخفيف لا لأن هذا زيد أو ذاك عمرو، ولكن لأنّ هذا أخـطأ لـلمرّة الأُولىٰ، وذاك كرَّر الخطأ فلم يستحقّ التخفيف، وهكذا فـي جـميع الأُمور.

وإذا كان البيت كذلك صارَ مدرسةً للمجتمع، يتعلّم فيها الأفراد أخلاق المواطنة الصحيحة، والتزام الحق والمساواة في تـعاملهم مع الناس، وسيكون التزام الحق والعـمل بـه إلى نـفوسهم قـريباً، ومجانبة العدل والظلم عندهم مكروهاً ومستنكراً.

ولابدّ من التأكيد مرّة أخرى بأنّ المطلوب: العـدل والإنـصاف والمساواة في التعامل.. أمّا المساواة في العطاء والواجبات، فـإنّه قد لايكون عدلاً في كثير من الموارد، فإعطاء الكـبير بـمثل إعـطاء الصغير ليس عدلاً، والإنفاق على المـريض، بـمثل الصـاحي ليس عدلاً، فلكلٍّ حاجاته ومتطلّباته.

كما ليس من العدل تكليف الضعيف والمـريض بـمثل تكـاليف القوي المتعافي.. نعم، يُعطىٰ هذا الثاني ما يعوِّض عمله الزائد عن غيره تشجيعاً له ولإزالة إحساسه بالغبن، ولأنّ القاعدة هـي: ﴿وأنّ ليس للإنسان إلّا ما سعىٰ﴾[1].

---

١ ـ النجم/ ٣٩.

وما يجب التنبيه عليه والحذر منه هو أنّ الحقد والحسد، وهما من أسوأ الأمراض النفسيّة والأعراض المدمِّرة للإنسان والمجتمع، يمكن أن يكون منشؤهما هو عدم العدل في التعامل مع الأولاد وإحساسهم بميل أحد الوالدين إلى أحدهم أو بعضهم أكثر من الباقين، فينبغي للوالدين أن لايُصرِّحا بتفضيل أحد الأبناء في حبّهم وميلهم له، وإن كان لهما أن يُصرِّحا برضاهم عن أحدهم أكثر لجِدّه ونشاطه أو حُسن عمله، فالتفضيل إذا تمّ في عطاء أو مكافأة فيجب أن يكون واضحاً للجميع، ومُعلَّلاً بعلّة خارجيّة تتعلّق بعمل الفرد المفضَّل، لا ذاته، وهذه قاعدة يجب مراعاتها في سائر الأُمور.

وأخيراً، يجب أيضاً رعاية العدل والإنصاف في التعامل بين الذكور والأُناث، فإنّ من السيِّئ جدّاً أن يُفضِّل بعضُ الآباءِ الذكورَ على الأناث، فإنّ ذلك يُحطِّم روح البنت ويفسد أخلاق الإبن، فيجب إحساسهم بالمساواة في التعامل وإظهار المودّة للجميع على السواء.

نعم، قد يكون هناك تنوّع في تقسيم الأعباء فيحمّل الإبن بأعباء خارج البيت، لا تمييزاً له، ولكن حفاظاً على البنات من الأذىٰ، إذا لم يكن الأمن متوفراً.. أمّا مع توفّره، فإنّ البنات يستطعن كذلك القيام بالكثير من المسؤوليات خارج البيت على حد سواء مع الإبن، كشراء الحاجيات أو مراجعة الدوائر والبنوك ودفع المستحقّات... إلخ.

والغريب أن نجد التمييز بين الأولاد الذكور والأناث شائعاً في مجتمعاتنا إلى الحدّ الذي يعيد إلى الذاكرة صور الجاهلية الأُولىٰ، وأن نجد بعد ألف وأربعمئة سنة ونيف من بعثة الإسلام، البعض من ذوي النفوس القديمة.

فلقد حدّثنا القرآن الكريم عن المشركين قبل الإسلام وصور تعاملهم مع المرأة، إذ يقول تعالىٰ: ﴿وإذا بُشِّرَ أحدُهُم بالأُنثىٰ ظَلَّ وَجهُهُ مُسوَدّاً وهو كَظِيمٌ * يَتَوارىٰ مِنَ القَومِ مِن سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أيُمسِكُهُ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ في التُّرابِ ألا ساءَ ما يَحكُمُونَ * لِلّذينَ لا يُؤمنُونَ بالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ولله المَثَلُ الأَعلىٰ وهو العزيزُ الحكيمُ﴾[1].

فكيف يتعامل البعض مع المرأة بهذه الصورة السيّئة التي ينقلها القرآن عن الذين لايؤمنون؟! كيف يتعامل البعض بنفس نمط التعامل مع المرأة وبعضهم يدّعون بأنّهم مسلمون؟!

ولا نذهب بعيداً، فإنّ إسقاط الجنين الأنثىٰ لازال موجوداً في بعض المجتمعات، كالهند والصين.. وهو صورة أخرى من صور الوأد وقتل الأطفال.

٥ـ حُسن المُعاشرة وإكرام الزوجة:

شَيَّد الله تعالى الأسرة على أساس المودّة والرحمة، وغرس في

١ـ النحل/ ٥٨ـ ٦٠.

الزوجين، الرجل والأنثىٰ، الميل للآخر والسكون إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ومِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لكُم مِن أنفُسِكم أزواجاً لِتَسكُنُوا إليها وجَعَلَ بَينكُم مَودّةً ورحمةً إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يَتَفكَّرونَ﴾[1].

ومن هنا، فإنّ البيت إذا ما افتقد السكون وغابت عنه أواصر المودّة وأجواء الرحمة، فإنّه يفقد بذلك غاية وجوده وسر دوامه، وعاد هيكلاً بلا روح، وسجناً يضيق بساكنيه، أو جحيماً لايطاق.

ولا يستحكم بناء الأسرة ويدوم وجودها المبارك وعطاؤها السحري الذي يؤلف بين أفرادها ويبث فيهم الطمأنينة والسكون.. لايكون ذلك إلّا إذا ما حفظت فيه الحقوق والواجبات، وروعيت فيه الحرمات والكرامات، وتعاون الجميع من أجل سعادة هذه المملكة الصغيرة بحجمها، الكبيرة بمعانيها.

والزوجة تُمثّل قطب الرحىٰ في هذه الدوحة، التي لايزهر فيها العشب إلّا بحفظ حقوقها وإعزازها وإكرامها، وقد قال تعالىٰ: ﴿ولَهُنَّ مِثْلُ الّذي عَلَيهُنَّ بِالمَعروفِ ...﴾[2].

وقال جلّ شأنه: ﴿وعاشِرُوهنَّ بِالمَعروفِ ...﴾[3].

وقال الرسول الكريم(ص): «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي».

---

١ ـ الرُّوم/ ٢١.

٢ ـ البقرة/ ٢٢٨.

٣ ـ النِّساء/ ١٩.

وقال (ص) أيضاً: «ما أظنّ رجلاً يزداد في الإيمان خيراً إلّا ازداد حبّاً للنِّساء»[1].

وذلك لأنّ النِّساء مظهر للمودّة والرحمة، وموطن للجمال والألفة، وكلّما زادت نفس الإنسان إيماناً وصفاءً، كان أكثر إحساساً لمعاني الجمال وأكثر ميلاً لصفات الكمال.

والزوجة الأُم تكتسب قدسيّة وكرامة إضافيّة، بالنسبة للزوج والأبناء، فالرجل يقضئ دوره في إيجاد الولد بلذّة ومتعة.. أمّا الأُم، فإنّها تحمل جنينها ليل نهار، تُغذِّيه من روحها وجسمها، وتذوب هي وينمو ولدها.. حتى تضعه وتبدأ معه مرحلة أخرى من التضحية والفداء.

من هنا جاءت إشارة خاصة من الباري تعالىٰ لدورها، إذ يقول تعالىٰ: ﴿وَوَصَّينا الإنسانَ بِوَالِديهِ حَمَلَتهُ أُمُّهُ وَهناً على وَهْنٍ وفِصالُهُ في عامَينِ أَنِ اشكُرْ لي ولوالديكَ إليَّ المَصِيرُ﴾[2].

ورغم التأكيد المستمر على البرّ بالوالدين، إلّا أنّ الأُم لها عناية خاصة، بل البرّ بها مُقدَّم على الأب، فقد جاء رجل إلى رسول الله(ص)، فقال: «يا رسول الله مَن أبِرُّ؟ قال: أُمّك، قال: ثمّ مَن؟ قال: أُمّك، قال: ثمّ مَن؟ قال: أُمّك، قال: ثمّ مَن؟ قال: أباك»[3].

---

١ ـ الكافي: ج٥/ ص٣٢١.

٢ ـ لقمان/ ١٤.

٣ ـ الوسائل: ج٢١/ ص٤٩١.

وهــذا ليس بـمستغرب، بـل هــو الجـدير بـما تُـقدِّمه الأُم مـن تضحيات وما تتحمّل من أعباء، ففي رسالة الحقوق، للإمام علـي بن الحسين بيان لحق الأُم ودورها وفدائها، بما لايمكن أن يؤدّىٰ حقّها ولا الوفاء لها، إلّا الموفّقون، إذ يقول: «أمّا حقّ أُمّك، فأن تعلم أنّها حملتك حيث لايتحمّل أحد أحداً، وأعطتك من ثـمرة قـلبها مـا لايعطي أحد أحداً، وَوَقَتْكَ بجميع جـوارحـها، ولم تـبالِ أن تـجوع وتُطعِمكَ، وتعطش وتُسقيك، وتعرىٰ وتكسوك، وتضحىٰ وتظلّك، وتهجر النوم لأجلك، ووقتك الحرّ والبرد، لتكون لها، فإنّك لاتطيق شكرها إلّا بعون الله وتوفيقه»[1].

من هنا، فإنّ خطوات بناء البيت السـعيد، والذي سـيُظلِّل بـفيئه أبناءً سُعداء، لايكون إلّا بأن يقوم على أُسس صحيحة من المودّة والرحمة، والعدالة والإنـصاف، والتـفاهم والإنسجام، والزوجـة والأُم هي السقف والجدران للولد، تؤويه في رحمهما وعلى مقربة من قلبها، ومن ثمّ إذا ما ولد ضـمّته إلى صـدرها ليـدفأ بأنـفاسها ويـرضع مـن لبـنها.. فـإذا مـا كـانت هـذه الأُم لم تـحظَ بـالعشرة بالمعروف، كما أمر ربّنا، ولم تُعطَ حقوقها، كما شرع، وإذا ما كان صــدر هــذه الأُم مــليئاً بــالآهات والحســرات، وقــلبها مـنفطراً ومنكسراً.. إذا ما كانت مظلومة ومهضومة وحزينة وكئيبة، فـمن أين سيحظىٰ هـذا الولد بـالفرح والسـعادة وهـو يـتغذّىٰ الألم مـع

---

١ ـ كتاب الخصال/ الشيخ الصدوق/ ج ٢/ رسالة الحقوق لعلي بن الحسين.

حليبها، ويرى الحزن في عينيها وهو ينظر إليها؟

إنّ هذا الطفل سيسمع أنشودة الأُم الحزينة وسيُميِّزها منذ اللحظات الأُولىٰ وهو يصغي إلى نبرات حنجرتها.. فمن أين يتعرّف هذا الطفل إلى طعم الفرح؟

إذا كنت تريد أطفالاً سعداء فابدأ أوّلاً بإسعاد أُمّهم لأنّها بالنسبة إليهم، الأصل، المصدر، الرمز، الأرض، الوطن.. ورموزاً كثيرة عدّها الأُدباء والشعراء ولم ينتهوا منها.

وإذا كنت تريد الخير وترجوه لإبنك، فابدأ بأُمّه، لأنّها هي التي ستغمره به.

إنّ الأُم التي تنعم بالسعادة وتشعر بالدفء والسكينة، وتمتلئ بالمحبّة والعزّة.. إنّ هذه الأُم، بما تحمل من مشاعر طيِّبة، هي التي ستصنع من ولدك: سعيداً أم شقياً، مطمئناً أم مضطرباً، هادئاً أم عصبياً، فرحاً أم كئيباً.

ومن هنا تبرز أهميّة الإهتمام بالأُم وإعدادها نفسياً وجسدياً قبل الحمل، وأثنائه، وعند الولادة وبعدها، ومسيرة الأُم وعطاؤها للإنسان لاتنتهي، مهما بلغ الولد من الكبر، فلازال يحنو إليها ولا زال يركن إلى دفقات الحب منها ويتبارك بدعواتها له.

إكرام الزوجة واحترام الأُم، يعني الكثير للأبناء، لأنّهم يرونها الأصل وهم الفروع، والجذر وهم الأغصان، وحرمان الأُم من المحبّة والمودّة يخلق عند الأولاد أزمات لاتنتهي، ولا تعوض مهما

بلغ البرّ بالأولاد ومهما كثرت العناية بهم.

إذا أردت أن تعرف إبنك كيف يكون، انظر أُمّه كيف هي، وانظر نفسك كيف تعاملها وكيف تعاملك؟!

بقي أمر، وهو أنّ البيت مهما حلا، والأسرة مهما انسجمت وسعدت، فلا تخلو الحياة من مشاكل ومحن، ولا تمر علاقة أسريّة دون بعض من التشنّج والفتن، حتى أنّ البعض يقول بأنّ المشاكل للأسرة كالملح في الطعام، لايستساغ الطعام بدونه، ولكن دون أن يكثر.

وربّما يقول البعض بأنّ المشاكل إذا ما قوبلت بالتفاهم والتعاون، فإنّها تزيد من استحكام الأواصر بين الزوجين وتُقرِّب بينهما.

وهذا قد يكون مقبولاً لحدٍّ ما، ولكن لاينبغي أن تُعكِّر هذه الأزمات جوّ البيت ولا تُؤَزِّم صفو الأولاد، خصوصاً الصغار منهم.

فإنّ الأولاد الصغار لم يتسنَ لهم من العلم والتجربة ما يفهمون منهما طبيعة الحياة واستمراريتها، ولا يملكون من الدنيا إلّا الأب والأُم، واللذان يُمثِّلان الحماية والملجأ والمأمن والدفء لهم، فإذا ما تلبّدت غيوم البيت وتعكّرت الأجواء بين الزوجين، ظنّوا أنّ السقف سيقع عليهم، أو أنّهم سيفقدون البيت ويظلّون في العراء بلا مأوىٰ.

ولذا فمن المهم بمكان أن يتفق الزوجان على أن لايتشاجرا، ولا يتجادلا أمام الأولاد، خصوصاً الصغار منهم، وأن يؤجِّلا المعركة حتى يختليا ويناقشا المسائل بعيداً عن أنظار الأطفال وسمعهم.

وربّما هذا بحد ذاته يُهدِّئُ الأُمور ويُهيِّئَ أجواء أكثر ملائمة للتفاهم وحلّ المشاكل، فلا يثأر الأب لكرامته حين ينتقد أمام الأولاد، ولا تغضب المرأة وتتفجّر أحاسيسها عندهم.

كما يمكن، وبحسب نمو الأطفال ورشد الأولاد، أن يُفهَّموا بأنّ مثل هذه المسائل تحدث في كلّ بيت وأنّها لاتُهدِّد مستقبل الأسرة وأنّ الكثير منها مجرّد سحابة صيف تنجلي بسرعة.

ومع كل هذا، فإنّ إنفعالات الأبوين وعلامات غضبهما يمكن أن تسري إلى الأولاد، فينبغي تجنّب ذلك أمامهم.

٦ـ مبدأ الثواب والعقاب:

لاتستقيم حياة ولا يستقر نظام إلّا بوجود المحاسبة والمراقبة والثواب والعقاب، فمن أَحسَنَ أُحسِنَ إليه وكوفئ بعمله، ومَن أساء حوسب وعوقب إن كان مستحقّاً لها، ولم يكن أهلاً للعفو والمسامحة.

والقصد في الثواب الحثّ على فعل المزيد من الخير وأعمال البرّ والإحسان، لأنّ الإنسان مجبول بالفطرة على حبّ الخير، وهو أيضاً مجبول على حبّ ذاته وطلب الخير لها، فإذا ما انسجم

الإنسان مع ذاته وسعىٰ في إصلاحها ونفع بذلك نفسه ومجتمعه، كان جديراً بالمدح والثناء والتشجيع والتقدير، ولكي يكون ذلك مدعاة للمزيد من العمل الصالح وحفزاً لغيره على سلوك هذا الطريق القويم.

وهذا المبدأ سارت عليه كل الشرائع والنظم، قال تعالىٰ: ﴿للذين أحسنوا الحُسنىٰ وزيادة﴾[1].

وقال: ﴿مَن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾[2].

وقد تميل نفس الإنسان إلى الشرّ، فيعمل السيِّئات، بحق نفسه أو غيره، فلابدّ هنا من رادع وصاد، ولابدّ أن يلوّح له بالعقوبة ويُعجِّل بها إليه إن لم يرتدع وألحّ في طغيانه.

ولو لم يكن هذا وذاك من المثوبة والعقوبة، لافتقد العدل والإنصاف، ولتطاول البعض على الآخر، ولم يتقدّم المحسنون في مسيرتهم ولم يتباطأ المسيئون عن فعلتهم، وفي ذلك يقول الإمام علي: «ولا يكوننّ المُحسن والمُسيء عندك بمنزلة سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة أو ألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه»[3].

---

١ ـ يونس/ ٢٦.

٢ ـ الأنعام/ ١٦٠.

٣ ـ نهج البلاغة، من كتابه إلى مالك الأشتر لمّا ولّاه مصر، رقم ٥، ص٤٢٦، تحقيق: صبحي الصالح، ط١، بيروت – لبنان، ١٩٦٧م.

والأصل في كل ذلك، العفو والمسامحة والرِّفق والرَّحمة، ما كان لذلك متسع، إلّا إذا كان ذلك مدعاة لمزيد من الظلم والإنحراف والطغيان والفساد.

وبذلك سارت السُّنن، وتقدّمت الحياة، على أنّ خير المنهاج هو تقوية مبدأ المحاسبة الذاتية، ليكون ضمير الفرد ووجدانه وشعوره بالمسؤولية وتقواه وخوفه من الله تعالىٰ، سلطاناً على نفسه يسوق بها إلى المعالي والمكارم، ويبعدها عن المكاره والمآثم، كما رُوِيَ عن رسول الله(ص): «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتجهّزوا للعرض الأكبر»[1]، إلّا أنّ هذه الحالة من التقوىٰ والشعور بالمسؤولية لاتتوفّر للجميع، فلابدّ من قانون يُنظِّم سلوك الناس ويلزمهم به.

والهدف من سائر التشريعات، ضمان النظم وإجراء المصالح ودرء المفاسد، لا إنزال العقوبات والنقمة من الناس، لذا يتطلّب ذلك توعية الناس وتهيئة الظروف المناسبة لإلتزامهم بالقوانين، لكيلا يكونوا تحت طائلتها.

وفي الأسرة، حيث ظلّ الوالدين ومحبّتهما ولطفهما ورأفتهما بالأولاد تعمّ الجميع وتشملهم، يأتي مبدأ المحاسبة والثواب والعقاب ليدفع الأولاد نحو المزيد من السلوك القويم والناجح ويُؤمِّن ويضمن لهم سلامة مسيرتهم وصونها عن الإنحراف.

١ـ ؟

ولكن لابدّ أن يكون الأولاد على معرفة بما يطلب منهم وما يتوجّب عليهم قبل أي حساب، إذ ﴿لا يُكلِّف الله نفساً إلّا وُسعَها﴾[1]، والجهل بالقانون أو الغرض، من دون تقصير في طلب علمه، يعذر الإنسان في كثير من الأحيان ويعفيه من الحساب.

إذن توعية الأولاد بواجباتهم وما يترتّب عليها من إلتزامات، هو المقدّمة اللّازمة، فلابدّ من التوضيح، ولابدّ أن لايقتصر ذلك على ترديد كلمات: الوجوب والحرمة.. دون بيان الحكم والفوائد من ذلك، لأنّ المعرفة تُحصِّن الفرد وتُعصمه عن الزلل.

ترىٰ لو كان الإنسان عالماً بحال مشروب ملوّث وما فيه من الميكروبات، وما قد يُسبِّب له من الأمراض والآفات، هل يقدم على شربه وهلاك نفسه؟

كذلك الأمر في المعاصي والآثام والتي تحمل للفرد المزيد من الأضرار.

لقد ساهمت التوعية المستمرة بمرض الإيدز إلى إنحساره أو قلّة إنتشاره في كثير من البلاد، وحصّنت الشباب عن كثير من الأخطاء والممارسات السيِّئة.

والأمر الآخر هو ينبغي مراعاة التوازن في المحاسبة بين الثواب والعقاب، فلا يُفرَّط ولا يُستفاد منهما في كل وقت، لأنّ ذلك قد يؤدِّي إلى أمراض نفسيّة أو سلبيات سلوكيّة معقّدة.

---

١ ـ البقرة/ ٢٨٦.

المكافأة على كل عمل تفسد الأولاد، لأنّها ستُفقدُهم دوافعهم الذاتية وتجعلهم لايقدمون على عمل صائب أو أداء واجب إلّا إذا انتفعوا وكوفئوا، في الوقت الذي يجب حثّ الأولاد على عمل الخير حبّاً فيه، وعلى الإمتناع عن الشرّ كُرهاً فيه، وأن يلتزموا بالحقّ والشرع خدمة لأنفسهم قبل كل شيء، وأن يعلموا أنّ في ذلك كل النفع والفائدة، في دنياهم وآخرتهم.

نعم، تأتي المكافآت كحوافز تقديرية وتشجيعية من الآخرين، تزيدهم سرعة في الحركة وتدخل السرور في أنفسهم وتؤكّد الحوافز في ذواتهم.

وكذلك العقوبات، فلا يبالغ فيها ولا تزاد عن حدّها، ولا تكون هي المنطلق، لأنّ الإنسان خطّاء بطبعه، وقد يكون قاصراً ومعذوراً في الكثير من تصرّفاته، وبالتالي فهناك أكثر من محطة للتنبيه والتحذير، وهناك وسائل أكثر تأثيراً للعقوبة، كإبداء عدم الرِّضا، أو الجفاء المؤقت، أو المنع من العطاء المادّي لفترة، دون اللجوء للعقوبات الجسديّة التي قد تترك آثاراً في النفس أكثر من الجسد، وتُسبِّب إعاقةً للولد قد تُدمِّر حياته أو تؤذيه كل عمره.

ولا يبالغ أيضاً في الحساب، فلا نحوِّل البيت إلى سجن أو معسكر بدل أن يكون مدرسة ومزرعة، لأنّ ذلك قد يزرع في نفس الولد عقدة الذنب، فتلاحقه مدى الحياة، ليشعر بالإخفاق والإحباط عند أي خطأ أو عثرة يعثر فيها، فيستسلم للقلق والشك والوسواس الذي يُهدِّد وجوده ويتراجع عن مواصلة طريقه.

ينبغي أن نُعلِّم الأولاد كيف يعتبرون من الخطأ، ولا يستسلمون له ويواصلون طريق حياتهم، وينبغي أن نقول لمن يقع: لست أوّل مَن يقع ولا آخر واحد.. قُم وواصل طريقك وانتبه أكثر فيما بقي منه حتى لاتقع مرّة أخرى.

٧ـ التواصل والحوار:

من سنن الحياة أنّ الناس مختلفون في ميولهم واتجاهاتهم، حتى الإخوة والأشقاء، بل حتى بين التوأمين الشقيقين، نجد تبايناً في ما بينهم في الآراء وفي الرَّغبات.

قال تعالىٰ: ﴿ولو شاء ربُّك لجعل الناس أُمّةً واحدة ولا يزالون مختلفين * إلّا مَن رحم ربُّك ولذلك خلقهم ...﴾[1].

إذن من الخطأ أن نفترض، أو أن نتوقّع، في العائلة، أن يكونوا متوحِّدين في رؤاهم، أو متطابقين في اتجاهاتهم.. لايمكن أن نحصل ذلك رغم النشأة في جو بيئي واحد ومهما كانت وسائل التربية قويّة وإدارة البيت صارمة.. نعم، قد يسكت بعض الأولاد وقد تكبت الأُم رغباتها، إلّا أنّهم يبقون في داخلهم يحملون رأياً آخر سيكافحون من أجله كلّما سنحت الفرصة ولو بعد حين.

نعم، يمكن العمل من أجل تقريب الرؤىٰ، لا تطابقها، والسعي لتأليف القلوب وتعايشها في جوّ الأسرة، والتفاهم للعمل في

١ـ هود/ ١١٨ـ ١١٩.

المسائل المشتركة برأي واحد، وإن اختلفوا فيه وذلك حفاظاً على نظام الأسرة، كما هو الحال في المجتمع.

والطريق إلى أي تفاهم أو توافق يبدأ من محطة واحدة، وهي وجود الأجواء المناسبة للتواصل والحوار، فإذا كانت جسور التواصل مهدّمة ووسائل الحوار معطّلة، فلا يمكن أن نتوقّع حصول نتائج مُرضيَة.

فالتواصل يُمهِّد الطريق لأي حوار وهو الأساس لأي تعايش بنّاء، فلا يمكن لأفراد منقطعين عن بعضهم أو متقاطعين، أن يصلوا إلى بناء كيان إجتماعي مستقر، فالبيت الذي لاتقوىٰ جدرانه لايمكن بناء سقفه واستقرار بنيانه.

وفي الأسرة، لابدّ أن يكون هناك تواصل، والذي يبدأ من نقطة السماع والإستماع لبعضهم البعض، ومن ثمّ التفاعل في الحديث والثقة والإحترام في العلاقات.. حتى تكون الجسور قويّة وممهّدة لنقل الأفكار وتبادل الخبرات وبثّ الهموم والتنوُّر بالآراء بين أفراد الأسرة جميعاً.

إنّ مشكلة الكثير من الآباء والأكثر من الأبناء أنّهم لايجدون الوقت اللازم في الأسرة للتواصل، خصوصاً مع استهلاك الحياة الحديثة لأوقاتهم، ومع إزدياد الفاصلة العمرية، بسبب تقدُّم سنّ الزواج، بين الآباء والأبناء، وبالتالي فإنّ العلاقات ستكون لمجرّد الإنتساب الوراثي، لا غير، ولا تحظى الأسرة بالأوقات الطيِّبة

والأجواء المفعمة بالحبّ والإنسجام، فتكون عندها المسافات شاسعة، فلا الأب يعرف بماذا يُفكِّر الولد، ولا الولد يفهم شخصيّة الوالد حتى يستطيع مجاراتها ومداراتها.

وحيث تكون العقلية الأسرية تقليدية أو مستبدّة، حيث يكون الأولاد أبناء عصرهم يُفكِّرون بطريقة مختلفة عن آبائهم، تبدأ التقاطعات وتزداد الهوة، وتتحوّل الإرشادات إلى أوامر وقرارات صارمة، لاتزيد الوضع إلّا تعقيداً والعلاقة إلّا جفاءً، لتهتزّ الثقة وتتزعزع أركان المودّة وتعود الأسرة جحيماً لا يطاق.

وبالتالي، فلا يمكن بناء أسرة سعيدة وعلاقات عائلية ناجحة إلّا بالتواصل، والذي يبدأ بحضور الوالدين مع أبنائهم، والمشاركة معهم في نشاطاتهم، والإستماع إلى آرائهم، ومن ثمّ الحوار معهم بالتي هي أحسن وصولاً إلى التوافق المطلوب.

كيف يكون التواصل ناجحاً؟

أوّلاً: عندما يكون التواصل حقيقياً لا مصطنعاً.. فالتواصل الأسري لاينجح عندما يكون روتيناً ومؤطراً، كما هو الحال في الإجتماعات الإدارية، بل لابدّ من العفويّة والأريحيّة فيه لتكون الأسرة تعيش حياتها الداخلية بحرِّيّة وإرتياح.

إذن على الإنسان أن يترك القيود والإلتزامات الإدارية الصارمة وراءه في العمل ويرجع إلى المنزل ليعيش مريحاً ومرتاحاً مع أسرته.. ليكون قريباً إلى نفسه وإلى أفراد عائلته،

والذين بدورهم لايرغبون في أن يعيشوا الأجواء الضاغطة في المدرسة والعمل، في البيت.. البيت ليس معسكراً ولا معملاً ولا سوقاً ولا دائرة.. البيت سكن ومودّة ورحمة.. يوفّر للإنسان ما قد يفقده في خارجه، من هدوء وإنبساط وراحة.

لينسَ الرئيس في البيت رئاسته، ولا يتعامل الوزير مع أسرته كما يتعامل مع أفراد وزارته، فهنا: بابا وماما، لا سيادة الرئيس، ولا معالي الوزير.. فبمقدار ما ننبسط ونشرح مع الأولاد، سيكونون منشرحين ومنبسطين معنا.

ثانياً: تصحيح الأفكار.. فمن المهم أن تكون أفكارنا واقعية وليست مثالية، ونسبيّة وليست مطلقة، فلا نتوقّع أن يكون الأولاد متساوين في الطاقات والإمكانات، لنُحمّلهم ما لايطيقون ونواجه منهم تألُّماً ونفوراً.. كما إنّ من الخطأ أن نطلب اتفاقاً في كل شيء، فإذا ما اختلفوا انزعجنا وواجهناهم بالسخط وعدم الرِّضا.

ولابدّ من البدء أن نعلم أنّ الأولاد ليسوا مُلكاً لنا لنتصرّف معهم ونتحكّم في مستقبلهم كيفما نشاء، بل هم أمانة الله بأيدينا وعلينا معاونتهم ومساعدتهم كي يشقّوا طريقهم في الحياة، عندما يبلغون ويرشدون، بإختيارهم وكما يحبُّون.

إنّ أُمّ المشاكل الأسريّة تبدأ من حيث تكون الأفكار خاطئة والتصوّرات واهمة، فيكون هناك تنافر واصطدام بين ما نريد وما يمكن أن يكون، ممّا هو متطابق مع الواقع وقريب إلى رغبة

الآخرين.

ثالثاً: الإستماع أوّلاً، وقبل أن نلقي سيلاً من الوعظ والإرشاد، فالإستماع يهب المتكلّم شعوراً بالتفهُّم والقُرب ويُعمِّق أواصر الثقة والمحبّة، ويُهيِّئ المتحدِّث لسماع الطرف الآخر ردّاً للجميل ومعاملة بالمثل.

وهو أيضاً يجعلنا نفهم الأولاد المتكلِّمين ونعيش همومهم ونلمس معاناتهم، وبالتالي فإنّ معرفة الداء نصف الدواء، فإذا ما استمعنا سَنَنتَقي كلماتنا ونُوجِّه أحاديثنا بالإتجاه القريب إليهم وبما يحتاجونه من نصح وإرشاد.

قال تعالىٰ: ﴿وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه... ﴾[1].

رابعاً: لنكنْ قريبين منهم.. فلا نرتقي منابر الوعظ ولا نلقي الكلمات من منصّة الخطابة أو مواقع الرئاسة والإدارة، بل لنتكلّم معهم وكأنّنا منهم ومعهم، بالتناسب مع سنّ الولد والمرحلة التي يعيش فيها، كما رُوِي عن الرسول الكريم(ص): «مَن كان له صبي، فليتصابىٰ له»[2].

ليحسّ الولد بأنّنا نفهم مشاعره ونُقدِّر عواطفه وندرك ظروفه، بل كأنّنا نمر بنفس الأزمات ونواجه نفس المشاكل، ولا نعامله وكأنّه متهم أو مُذنب، أو كأنّنا قدّيسين أو قضاة، بل من المفيد جدّاً

---

١ - إبراهيم/ ٤.

٢ - ميزان الحكمة/ المجلد العاشر/ ص ٧٠٠/ نقلاً عن كنز العمال.

أن نذكّر الولد بأن ما يمر به، يمر به كثير من الأولاد من سنّه، وإذا كانت لنا تجربة مماثلة ننقلها له بصدق حتى يأخذ العبرة منها ويزداد قُرباً وانفتاحاً علينا.

لنتذكّر أنّنا أيضاً كُنّا نخطأ ونُصيب، فلا نُعنّف الولد أكثر من اللازم إذا أخطأ، ولا نُكفّر عن سيّئاتنا بالتشدُّد معه.

خامساً: الواقعية والإعتدال.. وهذا منهج مطلوب في كل شيء، فلكي يكون الوالد قريباً إلى ولده، ولكي يكون الولد مستمعاً ومسترشداً لأبويه، لابدّ أن تكون القضايا التي يتناولها الآباء واقعيّة، لا مبالغة فيها، وأن تكون الإرشادات عملية لا خيالية أو أسطورية لايمكن العمل بها.

إنّ كثيراً من الإنصات المطبق والإنبهار المطلق الذي يعيشه الحاضرون في بعض مجالس الوعظ، يتبخّر مع أوّل خطوة خارج المجلس، لأنّ النماذج التي يطرحها الوُعّاظ وهميّة وغير عمليّة.. عن رجل يصوم دهره، وآخر يقوم ليله، وثالث تارك لدنياه وأهله.. وغير ذلك من القصص الخيالية والمبالغات المغالية التي لاتتفق مع الإسلام، وهو دين الحياة والفطرة ومنهج السير والإعتدال.

وأخيراً: لابدّ من منهج الحوار، فلا يكون الحديث بإتجاه واحد من الأعلى إلى الأسفل، يتكلّم الوالد والأولاد ويستمعون، دون مجال لسؤال، أو فرصة لحوار ونقاش، فتكمن الشبهات في الصدور وتستفحل الشكوك في النفوس دون أن تجد طريقاً إلى

الفضاء.

وقد يَمنعُ بعضُ الآباء أولاده أو أُسرته من النقاش والحوار، مستفيداً من سلطته وموقعه الأسري، ولكن الإدارة شيء والحوار شيء آخر قد يُعزِّز الإدارة الأسرية ويُقوِّيها.

ولم يمنع الله سبحانه وتعالىٰ ـ وهو الربّ المطلق ـ من الحوار، بل نجد في طي القرآن الكريم نماذج من حواره مع إبليس(عليه اللعنة) وهو رمز الشر وعنوانه.

كما نجد في القرآن الكريم نماذج كثيرة من الحوار مع الكافرين والمشركين ومختلف الناس، بمنطق الدليل والبرهان، حتى أنّه يقول على لسان نبيّه الكريم(ص): ﴿وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين﴾[1]، إرساءً منه لمنهج الحوار وتبادل الرأي والجدال بالتي هي أحسن، والذي يقوم على أساس إعطاء الفرصة للآخر لإبداء رأيه، ومن ثمّ مناقشته بالمنطق والعلم وما ثبت بالبرهان والوجدان.

الأُسرة نموذج مصغّر للمجتمع، وكما لايسعد ولا يفلح المجتمع بالجبر والإستبداد، كذلك الأسرة لابدّ فيها من مُتنفَّس للرأي ومجال للمشورة وفسحة لممارسة التجربة الديمقراطية المنضبطة، بصورة مبسّطة وجميلة.

---

١ ـ سبأ/ ٢٤.

٨ـ التشـاور:

بعض الإصطلاحات تكشف عن زينتها وجمالها بالرجـوع إلى مـعانيها وأُصـولها اللـغويّة، والتشــاور لغـة: إسـتخراج الرأي بمراجعة البعض للبعض، من قولهم: «شِرت العسل إذا اتخذته من موضعه واستخرجته منه»[١].

الأسرة مجتمع صغير، فيه شعب وحكومة، وكما تـحتاج أيّـة دولة إلى التشاور ﴿وأمرهم شورىٰ بينهم﴾[٢]، وإلى المحكمة، وإلى العدل والرحـمة، وإلى النـظم، وإلى الحـزم والعـزم.. كـذلك كـانت الأسرة بحاجة إلى كل تلك الصفات.

لابدّ أن يسود البيت العدل والإنصاف، ولازمه إستماع مختلف الآراء وإعطاء فرصة للمشورة، حتى يكون هناك جو من التـفاهم ووضع يمكن فيه أن تخرج القرارات ناضجة وحكيمة ومـنصفة، يتفاعل معها الجميع ويعملون من أجل نجاحها.

ولكن ينبغي للحرّيّة في الرأي والتشاور فـي الأمـر أن لايـفسد جو العائلة ويدفعا بالأسرة نحو الإختلاف والتـناحر والفـوضىٰ، لأنّه حينها سينهار كل شيء ويقع سقف البيت على ساكنيه، فلابدّ بعد كل مشورة من عزم وحـزن، ولابـدّ مـع كل حـرِّيّة مـن نـظم والتـزام وقـانون يـحكم الجميع، وهكـذا يـحترم الجـميع وهـم

---

١ ـ المفردات في غريب القرآن، للراغب الإصفهاني، مادة: شور.

٢ ـ الشورىٰ / ٣٨.

منضبطين بالحفاظ على سكون البيت واحترام الآخرين والإلتزام بــالمقررات الأســريّة، التـي لولاهـا لمـا كـان انســجام وتكـامل، ولتــناثرت أجـزاء الأسـرة إلى أشـلاء مـتفرِّقة لا يـجمعها جـامع، فالأسرة كـخلايا النـحل المـترابـطة أو كأوراق الزهـرة المـتآلفة، جمالها وكمالها في إنسجامها وإلتزامها، لا غير.

وهذه سنّة وقانون حاكم في أي إجتماع، كما نقرأ في آيات الله: ﴿ وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله ﴾[1].

لقد قيل وكُتِب كثير لإنتقاد المجتمعات الأبويّة التي تـجعل مـن الأب الحاكم المـطلق، لتكـوِّن مـن خـلال ذلك مـنظومة الإسـتبداد الشامل في المجتمع، وقد أصابوا حين تكون تلك السلطة الأبـويّة ظالمة ومستبدّة، وأخطأوا وأسرفوا عندما دعا البعض إلى تفكيك تلك السلطة.

السلطة، كسلطة، لابدّ منها لأي إجتماع، وفي الأثر الشريف: «إذا كنتم ثلاثة فأمِّروا أحدكم، وإذا كنتم إثنان فليؤمِّر أحدكما الآخر»، ولكن السلطة، كأي أداة، تُميَّز وتُقيَّم بمحتواها وبأدائها، عادلة أم ظالمة، مقيّدة أم مستبدة.

إذن، لابدّ أن يتشاور الوالدان فـيما بـينهما، ليُـقرِّرا مـا يـخصّ حياتهما المشتركة، والقرار يـتبع الرأي السـديد، سـواء جـاء مـن الزوج أم الزوجة.

---

١ ـ آل عمران / ١٥٩.

ويــمكن أن يــختلف الزوجـان، ولكـن حُسـن التآلف والمـودّة القائمة بينهما تذيب جليد الإختلاف، بالتساهل والتنازل عـن رأي أحدهما للآخر، في كثير من الأُمور، والتي غالباً ما تكون صـغيرة لاتستحقّ الوقوف عندها.

والقاعدة أن يتنازل ـ عند الإختلاف ـ أحد الزوجين في القضية التي تمسّ الطرف الآخر وتهمّه أكثر من غيره.

كما إنّ من المعروف أن يتنازل ـ في الأُمور المشتركة ـ الطرف المستفيد للطرف المفيد، أي للذي يدفع المال، وإن كان الموضوع يخص الطرف الآخر، فلابدّ لمـن يـدفع المـال ويـهدي الحـاجة أن يأخذها بما يقرّ بها عين الطرف الآخر.

وللتشاور مع الأولاد مجاله الواسع والحسّاس، لأن في أصـل التشاور معهم نوعاً من تدعيم وتقوية شخصياتهم وإحسـاسهم بالثقة، وهي من أهم ما يحتاجونه في حياتهم ونشأتهم.

ثـمّ فـي ذلك إشـعار لهـم بـحسّ المشـاركة فـي المسـؤولية، والمشـاركة فـي صُـنع القـرار، وبـالتالي تـفهُّم ظـروف العـائلة والمساهمة في إنجاح مسيرتها.

إنّ من الممكن لربّ الأُسـرة ـ وكـذا الحـاكـم ـ إصـدار الأوامـر وفرض العقوبات على مـخالفيها، ولكن مـهما كانت تلك الحكـومة، للأب أو الحـاكم قويّة، فإنّها لايمكن أن تـملك القـلوب، وإن حكـمت بأوامرها الحـواس الظاهرية، وشتّان بين الإرادة المصطنعة ومـا

يرافقها من خوف وقهر ورياء ونفاق، وبين الإيمان والقناعة التي تلتزم في السرّ والعلن، عند الشدّة وعند الرَّخاء.

ليس ضعفاً، بل هي قوّة وحكمة، في الحاكم والأب، إذا شاور وحاور، واستمع وأنصت، وتلطّف وتواضع لأبناء أسرته أو مواطنيه، وذلك ما يجعل رأيه في النهاية أكثر حكمة وأكثر قُرباً من الواقع، وبالتالي نجاحه في التطبيق.

يمكن للأب أن يُقرِّب الرأي الذي يريده من خلال طرح أكثر من وجهة نظر، ولكن يدعم رأيه بالأدلة المساندة ويصفه بما يُقرِّبه إلى أفراد أسرته ويجلب إستحسانه، ومن ثمّ يختارونه ويحسّون بأنّ الأب قد اختار رأيهم.

ولكن قبل كل شيء، لابدّ أن يتحلّى الأب بصفة الإستماع والإنصات إلى أبنائه قبل أي قرار.

إنّ ذلك يُؤهِّلهم لكي يُفكِّروا ويتدبّروا، ولأن يقتدروا ويُقرِّروا لاحقاً، ليدخلوا المجتمع بشخصية مسؤولة ملتزمة وروح قيادية ومبادرة.. أليس كذلك؟

التربية المالية

علمنا فيما سبق أنّ العلماء قالوا في الرُّشد بأنّه صلاح في العقل وحُسن التدبير، ولكنّهم أكّدوا على معيار التصرُّف المالي.. فاليتيم الصغير يُدفع له مالُه إذا آنسوا منه أنّه حَسَنُ التصرُّف في المال، مُصلحاً لا مُفسداً فيه، ولا يدفع له المال ولو بلغ من العمر عتياً إذا كان سيِّئَ التصرُّف فيه، بما يصح إطلاق كلمة السفيه عليه، وإنّما ينفق عليه بواسطة وليّه أو مَن يُعيِّنه ولي الأمر لذلك.

ولم يعتنِ الفقهاء بالمعايير الأخرى، كالتصرف الإجتماعي والأخلاقي وحتى السلوك الديني، فإنّ الفاجر يدفع له ماله بعد بلوغه-إذا لمس فيه حُسن التصرف المالي، وذلك أمر يستدعي التأمُّلَ والتعجُّبَ.

وقد يقال: إنّ الأمر متعلّق بدفع المال إليه، فيشترط فيه حُسن التصرف المالي، ولكن ذلك الإعتبار في الرُّشد لم يقف عند حدّ المال، بل ترتبت آثار أخرى عليه، شرعية وقانونية وإجتماعية، وحُسن التصرف المالي كان أمارَةً وعلامة على كمال عقله، لا حُسن تدبيره المالي فحسب، ممّا يدلّ على أن مَن يحسن التصرف في المال ويحكِّم عقلَه فيه، يمكن أن يعمل عقله في سائر الشؤون.

وممّا يؤكِّد ذلك، ما بأيدينا من نصوص مأثورة، فعن ابن

مسعود، وكان مسؤول بيت المال، أنّه كان يعطي الناس عطاءهم، فجاءه رجل، فأعطاه ألف درهم، ثمّ قال: خذها فإنّي سمعت رسول الله(ص) يقول: «إنّما أهلك مَن كان قبلكم الدينار والدرهم، وهما مهلكاكم»[1].

ونجد قولاً مأثوراً للإمام علي بن أبي طالب يُبيِّن لنا دور المال وتأثيره في سائر الشؤون الأخرى، إذ يقول: «المال مادة الشهوات»[2].

ولذا فإنّ الذي لايغتر بماله فيطغىٰ، ولا ينفقه هباءً، سيكون إلى حد كبير، مسيطراً على تصرفاته الأخرى، ولذا فإنّ التربية على حُسن التصرف والتدبير المالي، يعد أحد الأركان الأساسية في إعداد الولد وتوجيهه، ويتطلّب ذلك برنامجاً مبكراً يبدأ منذ الطفولة حتى الكبر.

ونستطيع الإشارة هنا إلى أهم أهداف التربية في هذا الشأن، لتلحظ في توجيه الطفل نحوها تدريجياً، حتى يصل إلى مستوى الرُّشد والنضج فيها:

---

١ ـ الترغيب: ج٤/ ص٣٢٨.

٢ ـ نهج البلاغة: باب الحكم برقم ٥٥.

١ ـ التدبير والإعتدال في الصرف:

قال تعالىٰ في وصف عباد الرّحمٰن: ﴿والّذين إذا أنفَقُوا لَم يُسرِفوا ولَم يَقْتُرُوا وكانَ بَينَ ذلكَ قَواماً﴾[١].

فالإنسان الرشيد حَسَنُ التدبير، فإذا ما حصل على مال، لم ينفقه كلّه ويبقىٰ بعدها محتاجاً إلى غيره، فهو يُفكّر في عواقب الأُمور قبل أن يقدم عليها، ولكن ذلك لايدفعه أيضاً إلى الحرص وسوء الظن بالله تعالىٰ ـوهو الرازقـ، كما يفعل بعض الناس، فلا ينفق على نفسه ولا عياله ويُعَسِّر عليهم، وهمّه جمع المال دون الإنفاق منه، بل هو معتدل، يصرف على نفسه وأهله، من دون تبذير وإسراف وإتلاف للمال في غير محلّه، ويُفكّر في نفس الوقت لغده ومستقبله، فيعمل لتطوير وضعه واستثمار ماله وادخاره الزائد منه.

ومن الوسائل الناجحة في تدريب الولد على التدبير أن يُجْعَلَ له راتبٌ ويُفهّم بأنّ هذا المال له، إن شاء صرفه كلّه أو بعضه وادّخر الباقي لنفسه، ليشتري لنفسه ما يشاء، أو يسافر به إلى مكان جميل، وغير ذلك ممّا يرغب به الولد، بحسب سنّه.

ويبدأ به أوّلاً بأن يعطىٰ مصروفاً يومياً، ثمّ أسبوعياً، فشهرياً، ويعطىٰ مالاً يغطي إحتياجاته ويزيد قليلاً، تشجيعاً له على الإدخار في صندوقه، وإذا ما كبر فيفتح له حسابٌ مصرفي ويشجع على

---

١ ـ الفرقان/ ٦٧.

مراجعة البنك بنفسه والإحتفاظ بدفتر الحساب ليعلم ما يملك وما يزيد في حسابه.

وهذه الطريقة فيها تدريب كبير للولد على حُسن التصرف بالمال وتدبيره، كما إنّها تكون له ذخيرة مالية، تزداد حتى تكون رقماً يعتدّ به يوماً ما، تنفعه مستقبلاً، والتجربة أثبتت أنّ هذا الولد سيكون راشداً قبل غيره.

وهناك فائدة أخرى أساسية من هذا النهج، وهي تعليم الولد على الإحتفاظ بماء وجهه وعزّة نفسه، بعدم مدّ اليد وطلب المال، ولو من والديه، فهو يأخذ ماله مرّة واحدة، ويتصرّف فيه، دون أن يستجدي والديه كل يوم.

ومن المؤسف له أنّ بعض الآباء يُدرِّبون أبنائهم على عكس ذلك ويظنون أنّ حاجة الولد المستمرة للأب ـ وكذا يفعلون مع الزوجة ـ تحفظ لهم سيطرتهم على البيت، وهو خطأ كبير يذلّ أفراد الأسرة ويشعرهم بالحاجة المستمرة ويفقدهم الشعور بالإطمئنان والإستقرار.. ومن المفروض أن يحفظ الأب وكذا الأُم، هيبتهما بالعزّة والكرامة والإحترام المتبادل.. دون الحاجة إلى الإستفادة من وسائل مادية.

٢ـ التحرُّر من عبوديّة المال:

جبل الإنسان على حبّ المال، كما جبل على حبّ الكثير من متع الدنيا الضرورية لحياته وسعادته، قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ للنّاسِ حُبُّ الشَّهواتِ مِنَ النِّساءِ والبَنينَ والقَناطيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهبِ والفِضَّةِ والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأنعامِ والحَرْثِ ذلك متاعُ الحياةِ الدُّنيا واللهُ عندهُ حُسنُ المَآبِ﴾[١].

وامتاز الإسلام بأنّه دين الإعتدال والتوازن بين الدنيا والآخرة، فحثّ على طلب العلم والعمل والزواج وإعمار البلاد وذمّ اعتزال الدنيا والإمتناع عن ملذّاتها الحلال كما في بعض الأديان، إذ قال تعالىٰ: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ...﴾[٢]، وكان شعارُ المؤمن ودعاؤه الذي علّمه الله تعالىٰ: ﴿رَبّنا آتِنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقِنا عذابَ النار﴾[٣].

ولكن الإسلام أراد من المؤمن أن لايُغالي في حبّ المال حتى يستعبده، بل يتعامل مع المال كوسيلة لإسعاد نفسه والآخرين واستثماره لما ينفع الناس وما يصلح دينهم ودنياهم لا الإضرار بهم والطغيان عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وابتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبك من الدُّنيا وأحسِن كما أحسنَ اللهُ إليك ولا

١ـ آل عمران/ ١٤.

٢ـ الحديد/ ٢٧.

٣ـ البقرة/ ٢٠١.

تَبغِ الفسادَ في الأرضِ إنّ اللهَ لا يحبُّ المفسدين﴾[1].

من هنا ذمَّ القرآنُ حُبَّ المال لدرجة أن يكون هدفاً يبتغيه الإنسان بأيّة وسيلة كانت، ولو بالحرام والإستحواذ على مال الآخرين، فقال في الصفات السيّئة للإنسان الغافل عن ذكر الله: ﴿كَلّا بَل لا تُكرِمونَ اليَتِيمَ * ولا تَحاضُّونَ على طَعامِ المِسكينِ * وتأكُلُونَ التُّراثَ أكلاً لَمّاً * وتُحِبُّونَ المالَ حُبّاً جَمّاً﴾[2].

فينبغي أن يُفهَّمَ الولد تدريجياً حقائق الحياة، من إقبالها وإدبارها، وأن ما يبقىٰ للإنسان هو العمل الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثواباً وخَيرٌ أملا﴾[3]، وأن يعي أنّ المال بيد الله، يرزق به من عباده ما يشاء، وأنّه فتنة للإختبار والإمتحان ﴿إنّما أموالُكُم وأولادُكُم فِتنَةٌ واللهُ عندهُ أجرٌ عظيمٌ﴾[4].

فعلى الإنسان أن يسعىٰ لإستحصال المال بالحلال، ويصبر إذا كان رزقه محدوداً، فيزيد من سعيه وتوكّله على الله، حتى تنقضي المحنة ويفرّج عنه، وإنْ رَزَقَه اللهُ زادَ في شكره، ولم يطغَ ولم يفسد وإنّما ينفق المال في صلاح دينه ودنياه.

---

١ ـ القصص/ ٧٧.

٢ ـ الفجر/ ١٧ ـ ٢٠.

٣ ـ الكهف/ ٤٦.

٤ ـ التغابن/ ١٥.

٣ـ الإنفاق على الأُسـرة:

الإنفاق على الزوجة والأولاد، واجب شرعي وواجب إنساني.. فشرعاً تسقط حقوق الزوج إذا امتنع عن النفقة على أهله، بما يؤويهم ويطعمهم ويلبسهم، قال تعالىٰ: ﴿الرجال قوّامون(*) على النِّساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم...﴾[١].

وتشمل النفقة الزوجة والأولاد، لأنّهم في كنف الرجل ومسؤوليته، ويجب عليه العمل لتحصيل ذلك، ولا يجب في المقابل على المرأة، إلّا إذا فقدت الأسرة الوالد ولم يكن هناك من أهله مَن هو مسؤول عنها أو يتعهّد بها، فتنتقل المسؤولية إلى الأُم.

والدولة ـ في الإسلام ـ مسؤولة عن تهيئة مستلزمات العمل والمعيشة بحدّ الكفاية لسائر الناس، فإذا افتقد العمل وانعدم المال الكافي للأسرة وعجز ربّ الأسرة عن رعايتها، تحمل ولي الأمر المسؤولية وسدّ العوز حتد تستقر الأسر وتجد ما يكفيها.

قال تعالىٰ: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائر والمحروم﴾[٢].

وهذا أمر بديهي، لأن لا أمان ولا اطمئنان للإنسان إذا لم يجد قوت يومه والمسكن الذي يأوي إليه، ولنتذكّر مقولة أبي ذر:

---

* ـ ذهب بعض العلماء إلى أنّ كلمة (قوامون) بمعنىٰ قائمون بأُمورهنّ مسؤولون عنهنّ وتدبير ما يلزمهنّ، فهي مسؤولية وتكليف، لا منصب وتشريف.

١ ـ النِّساء/ ٣٤.

٢ ـ المعارج/ ٢٥.

«عجبت لمن لايجد قوت يومه كيف لايخرج على الناس شاهراً سيفه»[1].

ولذلك اتّجه كثير من المجتمعات إلى تأمين هذا الجانب للإنسان المقيم على أراضيها، مواطناً كان أم مهاجراً، حتى تستطيع توفير الأمن له ولها.

والإنفاق على الأولاد، مطلوب حتى يصلوا إلى الحال الذي يستطيعون الإعتماد على أنفسهم، ويجب أن يتذكّر الآباء أنّهم هم الذين جاءوا بهم إلى الدنيا، وبالتالي يتحمّلون مسؤولية حياتهم، وأنّ الله تعالىٰ تكفّل بأرزاقهم، وربّما عاد الكثير ممّا يجنيه الأب، إلى أهله: زوجته وأولاده.

قال تعالىٰ: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيّاكم﴾[2].

فقدَّم الله تعالىٰ رزقهم على رزق الوالدين، في إشارة إلى أهميّته وضمانه من الله تعالىٰ.

وممّا يؤسف له أنّ ظاهرة قتل الأولاد لازالت سارية، رغم أنّنا نعيش في عالم الحداثة وحقوق الإنسان.

ففي تقرير للأُمم المتحدة، أنّ العالم يشهد سنوياً ثمانين مليون حالة حمل غير مرغوب فيه، وتفقد سنوياً ٦٠ مليون طفلة حياتها

---

١ ـ ؟

٢ ـ الإسراء/ ٣١.

بسبب الإجهاض الإختياري أو قتل البنات.

ولا تتوقّف أهميّة الإنفاق على العائلة ضمن حدود الواجب، بل تمتد لتكون معياراً إيمانياً وأخلاقياً، به قياس تديُّن المرء والتزامه، وبه يثاب ويرتقي سلّم درجاته يوم القيامة، ففي الحديث عن رسول الله(ص): «أوّل ما يوضع في ميزان العبد نفقته على أهله»[1].

وهكذا نقرأ عن الإمام علي بن أبي طالب، قوله: «حُسن الخُلق اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسُّع على العيال».

ونعلم عظيم خطورة الأمر إذا علمنا أنّ «الدين هو حُسن الخُلق»، وكيف جاء ترتيب التوسعة على العيال، بعد اجتناب المحارم وطلب الحلال، فهل هناك سرّ وعلاقة ما في هذا الترتب؟

نعم، التوسعة على العيال يؤدِّي إلى تمكينهم من المال الحلال وتحصينهم عن الحرام، فكم أدّى البخل على الأولاد إلى دفعهم للمعاصي والآثام.. وإن عصمهم الله من ذلك، فإنّ ذلك يترك آثاراً في نفوسهم وهم محرومون ممّا في أيدي الناس من خيرات.

قال تعالىٰ: ﴿... إنّ الله لا يحب مَن كان مختالاً فخوراً * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله... ﴾[2].

قال الزمخشري: «وقد عابهم الله بكتمان نعمة الله وما آتاهم من

---

١ ـ بحار الأنوار/ج٤٩/ص٩٤.

٢ ـ النِّساء/٣٦ ـ ٣٧.

فضل الغنىٰ والتفاقر إلى الناس»[1].

وعن النبي(ص): «إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن يرىٰ نعمته على عبده»[2].

وفي المأثور، عن الإمام علي: «البخل جامع لمساوئ العيوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء»[3].

ويشمل الإنفاق على الأسرة، الإنفاق على النفس، كي تعيش الكفاية والغنىٰ عمّا في أيدي الناس، وهو يوفّر للإنسان السكون والإطمئنان، خصوصاً إذا تمّ ذلك مع الإعتدال والتدبير، ففي الحديث المأثور: «إنّ النفس إذا أمَّنت قوت سنتها اطمأنَّت»[4].

وورد الذم لمن كان يملك المال ولا ينفق منه ليعيش في الدنيا عيشة الفقراء ويحاسب يوم القيامة حساب الأغنياء، ويراد من ذلك عدم الإنفاق بوجه عام، خصوصاً في سبيل الله وخدمة الناس المحتاجين.

بقي أن نشير هنا إلى مسائل ترتبط بالإنفاق على الأسرة، وهي:

أ) الإنفاق بمقدار السعة:

فلا يُحمَّل الأب فوق طاقته ولا يُطلب منه ما لا يطيق، فربّ الأسرة مسؤول عن حاضرها ومستقبلها، و«التدبير نصف المعيشة»،

---

١ و ٢ ـ تفسير الكشاف، في تفسيره للآيات.

٣ ـ نهج البلاغة.

٤ ـ الكليني، الفروع من الكافي، ج٥، باب ٤٧،

كما في المأثور، وعليه أن يدير الأسرة مالياً من جميع الجهات، ويدخّر إن استطاع لغرض تحسين سكنها وأحوالها، لذا حدَّد الإنفاق بالسعة وبالمعروف.

قال تعالىٰ: ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق ممّا آتاه الله لا يُكلِّف الله نفساً إلّا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وعلى المولود له رزقهنّ وكِسوتهنّ بالمعروف لا تكلَّف نفس إلّا وسعها...﴾[2].

ب) الإعتدال في الإنفاق:

قال تعالىٰ: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾[3].

كما إنّ البخل والإقتار في الإنفاق مذموم، كذلك الإسراف، وهو هنا تجاوز الحد في الإنفاق.. قال تعالىٰ: ﴿ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين﴾[4].

والإسراف مكروه ومنفور، في الفقر والغنىٰ على السواء، لذا ورد في الدُّعاء عن النبي(ص): «وأسألك القصد في الفقر والغنىٰ»،

---

١ ـ الطارق/ ٧.

٢ ـ البقرة/ ٢٣٣.

٣ ـ الفرقان/ ٦٧.

٤ ـ الأنعام/ ١٤١.

أي الإعتدال في كلا الحالتين.

وليس التمتُّع بالزينة من اللباس وغيره، ممّا فخر من المآكل والمشارب بحرام أو إسراف، خصوصاً إذا كان ذلك مناسباً دخل الفرد وإمكانياته، بل ورد الأمر في الذِّكر الحكيم بلبس أفخر الثياب وأجملها وأطهرها عند الصلاة، دون الإسراف في ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبُّ المسرفين * قل مَن حَرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيِّبات من الرِّزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصِّل الآيات لقوم يعلمون﴾[1].

ج) العدل في الإنفاق:

قلنا إنّ الأسرة دولة صغيرة، كما إنّ الدولة أسرة كبيرة، وكما إنّ العدل مطلوب من الدول والحكومات، كذلك هو مطلوب من ربّ الأسرة.. فلا يزيد أحداً دون حق، كما لاينقص آخر من غير استحقاق، فالعدل مطلوب بين الأبناء، كما هو مطلوب بين المواطنين، والتفرقة والتمييز تخلق الحسد وتزرع الأحقاد في النفوس، فتؤذيها وقد تدفعها إلى الأذىٰ.

قال رسول الله(ص): «اتّقوا الله واعدلوا بين أولادكم»[2].

وفي حديث آخر عنه(ص): «إنّ لهم عليك من الحق أن تعدل

---

١ ـ الأعراف/ ٣١ ـ ٣٢.

٢ ـ كنز العمال/ح ٤٥٣٥٠.

بينهم، كما إنّ لك عليهم من الحق أن يبرّوك»[1]، في إشارة واضحة إلى ارتباط العدل بالبرّ، كما ترتبط طاعة الحاكم بعدله.

وفي رواية أخرى: «ساووا بين أولادكم في العطية، فلو كنت مفضلاً أحداً لفضّلت النِّساء»[2].

والعدل مطلوب بين الأولاد، ليس في المال فحسب، بل حتى في إظهار المحبّة والمودّة، فعنه(ص): «إنّ الله يحبّ أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القُبَل»[3].

وعن الإمام الصادق، عن والده الإمام الباقر، قال: «والله إنِّي لأصانع بعض ولدي وأجلسه على فخذي وأكثر له المحبّة، وأكثر له الشكر، وإنّ الحقّ لغيره من ولدي، ولكن مخافة عليه منه ومن غيره، لئلّا يصنعوا به ما فعلوا بيوسف إخوته»[4].

وليس بخارج من العدل أن يعطي الوالد الجوائز لمن أحسن وأن يمنعها عمّن أساء، تحفيزاً لهم نحو العمل الصالح واكتساب الفضائل، وإنّما المطلوب المساواة في أصل العطاء.

كما إنّ من العدل أن يعطي مَن هو أكثر عبئاً، كأن يكون مثلاً طالباً في الجامعة، أكثر ممّن هو دونه، لأن حاجته أكثر وعمره

١ـ المصدر نفسه/ح٤٥٣٥٧.

٢ـ المصدر نفسه/ح٤٥٣٤٦.

٣ـ المصدر نفسه/ح٤٥٣٥٠.

٤ـ تفسير العياشي/ج٢/ص١٦٦.

أكبر، ولكن من الأفضل أن يُعْلِمَ الآخرين بأن لكل ذي حقٍّ حقّه، وأن كلاً منهم سينعم بما ينعم غيره إذا كان في عمره ومرحلته.

٤ ـ الإنفاق في سبيل الله:

قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ * ذلك الكِتابُ لا رَيبَ فِيهِ هُدىً للمتَّقينَ * الّذين يؤمنونَ بالغَيبِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ وممّا رَزَقناهُم يُنفقُون﴾[1].

جاءت كلمة الإنفاق مرادفة للصلاة في معظم الآيات القرآنية، ذلك لأنّها المعيار العملي على صدق إيمان الإنسان وعمق تأثّره بالصلاة، فالإيمان والعبادة يهدفان إلى زرع روح الخير في الإنسان، والذي يثمر في العمل الصالح، ومن أفضله: الإنفاق في سبيل الله، على الفقراء والأيتام والمساكين وكل المشاريع التي تنفع الناس وتصلح المجتمع كبناء المساجد والمدارس والمعاهد العلمية ودور الكتب والمستشفيات ودور الأيتام والعجزة وحفر الآبار وتأهيل الشباب للعمل وكسب الرِّزق ومساعدتهم للزواج.. وغير ذلك من عناوين الخير والتي تندرج جميعاً تحت عنوان الإنفاق.

وينبغي أن يُعَلَّمَ الطفل على الإنفاق ومساعدة الآخرين منذ الصغر، حتى ينمو فيه حبّ الخير والعطاء ويتعلّم التعامل مع المال في خدمة الناس ويسهل عليه الإنفاق.

---

١ ـ البقرة/ ١ ـ ٣.

فيبدأ بتعليم الطفل على التصدُّق منذ صغره، فيعطى المال ليوصله إلى الفقير أو يضعه في صندوق المساعدات، ويكافئ على ذلك، ويُبيِّن له فوائد ذلك، من حيث أنّه يذهب لمساعدة أطفال مثله لايملكون الملابس والغذاء، أو أنّهم مرضىٰ أو محرومون من المدرسة.. ويُفَهَّم بمقدار ما يفهم أنّ الله يزيد في ماله ويبارك فيه إن ساعد الفقراء ويحبّه أكثر ويعطيه ثواباً كبيراً في الجنّة.. ومن ثمّ يُشَجَّع لاحقاً إن كبر على الإنفاق من ماله الخاص، وسيفعل ذلك حتماً إن دُرّب منذ الصغر، ويُشجَّع على الإنفاق، ولو كان المال صغيراً، أو كان محدوداً عند الفرد، لأن «مَن لاينفق في القلّة لاينفق عند الكثرة».

وبالتالي سيتحوّل الإنفاق عند الولد إلى لذّة ومتعة يشعر بالسعادة بها، بدلاً من أن يشعر بالألم لتقديم المال، وسيشب بذلك على حبّ الخير.

وفي نفس الوقت، يعلّم الولد بأن يكون إنفاقه، بما في ذلك مساعدة الآخرين معتدلاً، فلا ينفق كل ما عنده، وهذا بحد ذاته يساعد على استدامة الإنفاق، لأنّ الإفراط في شيء يؤدّي إلى التفريط به، و«كل ما زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه».

وقد عاد رسول الله(ص) رجلاً، فقال له: «إنِّي رجل كثير المال، أأنفق كلّه؟ فقال له الرسول(ص): لا، فقال: أأنفق نصفه؟ فقال له: لا، فقال: أأنفق ثلثه؟ فقال: بلىٰ، ثمّ قال(ص): يا هذا، ألّا تنفق المال خير

لك من أن تترك خلفك عيالاً يتصدّقون الناس»[1].

---

١ ـ الجامع الصغير للسيوطي.

التربية الجنسية

إذا سأل ولدك عن مسألة تتعلّق بالجنس، فماذا تجيبه؟

وإذا سألت بنت أُمّها عن مسألة مشابهة، فماذا تقول؟

على الأغلب أنك ـ وهكذا أنا ـ سينتابك شعور شديد بالحياء والخجل، وستحاول التخلُّص من سؤاله بمختلف الطرق بالإجابة العامّة، أو الإجابة المختصرة والسريعة، وقد يواجه البعض ولده ـ بناءً على اعتقاده وتصوّره ـ بالتقريع والتوبيخ على سوء أدبه أو وقاحته.

والحال ربّما أخف مع الأُمّهات والبنات لأنّهنّ يتمتعن بخصوصيةٍ أكثر، ربّما تسمح للأُم بالهمس في أُذن بنتها، على استحياء، بصورة مبسطة عمّا سألت.

أمّا الشعور بالحياء، فهو أمر طبيعي وفطري، وحتى أكثر المجتمعات تحرراً وإباحية، فلا زال للحياء فيها مساحة، قلّت أم اتّسعت، ولا زال الجنس يعتبر أمراً خصوصياً، وهو كذلك.

ولكن أن يسألك إبنك عن شيء، مهما كان، فذلك يعني أنّ السؤال قد انقدح في ذهنه، ولكنّه تحرّك من حواسه، سواء كان ممّا شاهده في محيطه أو لمسه في جسمه، وبالتالي فإنّ بروز السؤال

أمرٌ عاديٌ وانقداحه في الذهن مسألة طبيعية للتفاعل بين الحواس والفعل، والفطرة والغريزة، وكلّها مواهب إلٰهية للإنسان.

وكون السؤال طبيعياً يعني أنّ لابدّ من إجابته، وبدلاً من أن يأخذ الولد من الآخرين الإجابة الخاطئة أو التي لاتلائم سنّه، فإنّ من الأفضل أن يأخذ تلك الإجابة وغيرها من والديه، اللذين يفهمانه ويعرفانه ويريدان خيره وصلاحه، وهو بالمقابل يثق بهما ويلجأ إليهما.

والولد، مهما كان عمره، بحاجة إلى إجابة، فالإبهام يزيده اندفاعاً لمعرفة المجهول، فـ«الإنسان حريص على ما مُنع»، وقد يقع في أخطاء محرجة أو مكلفة بسبب رغبته في معرفة أمر خفي عنه، لذا لابدّ من الإجابة ولكن بما يناسب سن الولد والمرحلة التي يمر فيها.

علمياً، الحياة الجنسية للأولاد تبدأ منذ الطفولة، بنحو وآخر، وتمر بأدوار مختلفة[1]، وكل هذه الأدوار تتطلّب نمطاً خاصاً من التعامل، لذا بات من الواجب على الآباء الإطلاع، على مقدار من الثقافة الجنسية اللازمة لتربية الأبناء.. كيف، وفي الرأي العلمي، أنّ السلوك الجنسي وطريقة التعامل معهم تؤثر بشكل وآخر، عميقاً في نجاح حياتهم الزوجية ونجاحهم الإجتماعي مستقبلاً.

في الإسلام، ومنذ عصر الرسالة الأوّل، اهتمامٌ بالسلوك

---

١ ـ انظر: د. علي كمال، الجنس والنفس في الحياة الإنسانية، ج١، ص١٧.

الجنسي عموماً، وبالأطفال، مورد البحث، خاصّة، وهناك أحكام وأخلاقيات تتعلّق بمسائل الخلوة وحفظ الخصوصية الجنسية للوالدين، ومن ثمّ ضرورة تأهيل الأولاد للبلوغ وتكاليفه، وتعليم الشباب والشابات معلوماتٍ عن المحرّمات وآثارها السيِّئة على الفرد والمجتمع، ومن ثمّ تعريفهم بالحياة الزوجية وأحكامها.

والثقافة الجنسية تهدف إلى إعطاء فكرة صحيحة عن عمليات نضج الفرد، الجسماني والعقلي والعاطفي، من حيث صلتها بالجنس، وتبديد قلقه ومخاوفه من كل ما يتصل بنموه الجنسي، وتبصيره بمشكلات الحياة العائلية، وتزويده بالمعرفة اللازمة التي تقيد خطر إساءة استخدام الغريزة الجنسية.

وبالتالي، فإنّ الثقافة الجنسية ليست مجرّد معلومات مجرّدة لغرض إشباع غريزة حبّ الإستطلاع لدى الولد، وإن كان ذلك بحد ذاته مطلوباً، وإنّما هي في الأساس تهدف إلى حفظ الولد وسلامة المجتمع من خلال الإلتزام بالعفّة والطهارة.

لقد دلّت الدراسات والأبحاث العالمية على أنّ معظم أخطاء الممارسات الجنسية ـ لدى الشباب ـ تنتج عن قلّة الوعي والثقافة لديهم، فهم قد ينساقون للركض وراء شهوة عابرة دون حسبان لآثارها، وصرّحت تقارير (اليونسكو) على أنّ الشباب هم الأكثر تعرّضاً للإيدز، وأنّ الوعي بالمرض هو أوّل خطوة للوقاية منه.

ولقد بيّنت الدراسات أنّ التثقيف الجنسي في المدارس لايؤدِّي

بالشباب إلى التجربة الجنسية المبكرة أو الإبتذال، وإنّما سيدعوهم إلى التوقي من الإنزلاق إلى المفاسد والبيئات الوسخة.

خطوات عمل:

❑ في الطبيعة، عالم الحيوان، وكذا عالم النباتات، أمثلة كثيرة، في متناول اليد، عن الحياة الجنسية بين الزوجين.. استحضر بعضها في الذهن، وهيِّئ لولدك جواباً عن أسئلته، ومنها كيف يأتي الولد إلى الدنيا.

❑ إذا سألك الولد سؤالاً محرجاً في نظرك، فاستقبله ببرود وهدوء، ولا تبدو عليك أمارات الإحراج أو الخجل، لأنّ ذلك سيجعل الولد يحجب عنك سؤاله التالي. إنّ إجابتك العادية ستدفع الولد إلى انفتاحه وزيادة اعتماده في مثل هذه الأُمور عليك، كما إنّها ستزيد من ثقته في نفسه، وتوازنه في التعامل مع المسائل الجنسية مستقبلاً.

❑ أعْلِم الطفل أنّ الزواج والقدرة على الإنجاب والتوالد، من نِعَم الله على الإنسان. إنّ عقدة الشعور بالإثم أو الحقارة تجاه الجنس سبَّبت الكثير من الإحراج للرجال والنِّساء، وقد تؤدِّي أحياناً إلى الفشل أو المعاناة في الحياة الزوجية.

❑ لاتبالغ في فصل البنات عن البنين في سني الطفولة الأُولى، بل دع الشعور بالخصوصية وبحب اللعب والإختلاط مع الجنس الآخر ينشأ بشكل طبيعي. إنّ التعنُّف والتشدُّد في ذلك قد يؤدِّي

إلى الإحساس بالنفرة من الجنس الآخر، والإحساس بالذنب لاحقاً، وقد يؤدِّي ببعض الأزواج إلى المرض، ووضع لاتحمد عقباه.

❑ حاول أن تكون واقعياً في طرحك وابتعد قدر الإمكان عن أن تظهر بمظهر الواعظ الزاهد.

❑ تعامل مع أخطاء الولد بسعة صدر وسماحة، فالإنسان خطّاء -إلّا مَن رحم ربّك-، وبالتالي لاينسى الآباء معاناتهم أيام شبابهم، وكذلك أخطاءَهم أو أخطاء معاصريهم، لذا عليهم أن لايواجهوا الأخطاء بتعصُّب وتشدُّد، بل المهم الإعتبار وتصحيح الخطأ، والولد الذي يقابله والداه بالتشدُّد قد يحجب عنهما أسراره، ويواجههما رياءً أو نفاقاً، في الوقت الذي يعيش حياته الخاصّة بعيداً عن أنظارهما.

❑ إنّ الحب والميل للجنس الآخر حالة طبيعية، أوجدها الله تعالىٰ في الإنسان لتشكيل الأسرة، نواة المجتمع البشري، وحفظ نوعه واستمراره.. والذي يقع في الحب ليس مجرماً، فإنّ القلوب بيد الله؛ ولكن ما يترتّب على الحب ويلحقه يجب أن يكون ضمن الحدود وفي الإطار الديني والأخلاقي والإجتماعي الصحيح والمناسب.

لايمكن أن نقول لأولادنا لاتقعوا في الحب، ولكن يمكن أن نقول لهم إنّ ميول الشباب متغيرة، وإنّ الكثير منها سحابة صيف

لاتمطر، فلا يأخذوا الأُمور بجدّية، ولا يقدموا على خطوات تلحقها ندامة، بل عليهم التخطيط لحياة زوجية مستقرة وناجحة، والحب قد يساعد في ذلك، ولكنّه ليس شرطاً فيه.

إنّ الجنس غير المشروع بواسطة العلاقات المشبوهة مبتذل في معظم دول العالم، كما إنّ إعلام الإثارة وإعلانات التعري باتت منتشرة في الكثير ممّا يُعرَضُ في السينما والتلفزيون، وكل هذه تُشكِّل إغراءات وحوافز للشباب اليافع، تدفع به نحو الإنحراف، وهم يُشكِّلون ـ كما سبق ـ أكثر ضحايا الفساد والأمراض الجنسية، لذا لابدّ من مواجهة كل ذلك بتحصين الشباب بثقافة جنسية واعية ومتينة تضعهم على الطريق الصحيح دون السبل الخطرة والوسخة.

ولا يكتفى بالوعظ والإرشاد، بل لابدّ للمجتمع عموماً والآباء خصوصاً أن يتحمّلوا مسؤولياتهم في تهيئة الظروف الملائمة لزواج الأبناء، والمساعدة على ذلك معنوياً ومادياً، لأنّ في الزواج استقرار النفس وحصانتها عن المنكرات، قال تعالى: ﴿ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾[1].

وقد رُوِي عن رسول الله(ص) قوله: «حقّ الولد على والده أن

---

١ ـ الرُّوم/ ٢١.

يحسن إسمه، ويزوِّجه إذا أدرك، ويعلِّمه الكتابة»[1].

---

١ ـ كنز العمال/خ٤٥١٩١.

التربية النفسية

والمراد منها الإستواء في الشخصية من ناحية نفسية، بمعنى التعادل فيها وعدم الإضطراب، والتعامل مع قضايا الحياة تعاملاً واقعياً ومتماسكاً، بعيداً عن الإنفعال النفسي غير المَرْضي أو المَرَضي.

ولا يُراد بذلك تربية النفس على الإيمان والطاعة والتقوىٰ وترك المعاصي والآثام، وهو الهدف النهائي للهداية الإلٰهيّة والتربية الدينية، كما قال تعالىٰ: ﴿ونَفسٍ وَما سَوّاها * فألهَمَها فُجُورها وتَقواها * قد أفلَحَ مَن زَكّاها * وقد خَابَ مَن دَسّاها﴾[1].

فهو موضوع آخر يبحث في محله، وما نعنيه هنا هو كيف نحفظ، من خلال التعامل السوي والتربية السليمة، الأولاد من الأمراض النفسية والاضطرابات السلوكية، ونوفِّر لهم الأجواء النفسية والاجتماعية الصحّية والسليمة.

وأهم ما يجب ملاحظته في هذا الباب من التربية، ما يلي:

١ ـ تأكيد الذات وتدعيم الثقة بالنفس:

---

١ ـ الشمس/ ٧ ـ ١٠.

جُبِلَ الإنسان على حبّ نفسه، وهذا الحبّ ليس بأمر سيِّئ، لأنّه هو الذي يدفع بالإنسان إلى حبّ الخير لنفسه والسعي لكمالها وجمالها واكتساب المزيد من الصفات الحسنة واجتناب ما يؤذِّيها ويُهلكها.

والدين عندما يدعو إلى حبّ الله واتباع الحق والتضحية في سبيله، لايسعىٰ إلى فناء الذات وإنسحاقها، وإنّما يسعىٰ للإرتقاء بها إلى مستوىٰ أعلىٰ من الوسائل والأهداف والسمو بها والإرتقاء بصفاتها.. إلى أن تقترب من صفات الله الحسنىٰ، من العلم والحلم والمعرفة والرَّحمة.. وأن يختار الإنسان لنفسه حياة صالحة في الدُّنيا، وليحصل على السعادة الأبديّة في دار الخلد في الأخرىٰ.

﴿يا أيُّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه﴾[1].

وكل ذلك حبّ للذات وإعزاز للنفس ولكن من نوع أرقىٰ وأسمىٰ.

وأكثر ما تؤكِّد عليه الشرائع السماويّة هو إكرام الإنسان وإعزازه، فهو مكرّم بالخلق والنشأة:

﴿ولقد كرّمنا بني آدم...﴾[2].

﴿اقرأ وربُّك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم

١ـ

٢ـ

يعلم ﴾[1].

ولم يسمح الإسلام قط بإذلال الإنسان وتحقيره، لأنّه عبد الله وسيِّد مخلوقاته، قال تعالى: ﴿ولله العزّة ولرسوله والمؤمنين جميعاً ﴾[2]، كما جاء في الأثر الشريف: «إنّ الله يرضىٰ لعبده كلّ شيءٍ إلّا الذل»، و«لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه».

لأنّ إكرام الإنسان وإعزازه سيؤهِّله للتكامل والإرتقاء.. وإذلاله وتحقيره يجعله رخيصاً وعرضة للسقوط والتسافل، فـ«مَن هانت عليه نفسه فلا تأمنوه» لأنّه عندما يجد نفسه حقيرة ومبتذلة، فإنّه لا يستنكف من عمل السُّوء والعيش مع السُّفهاء.

من هنا، ينبغي للوالدين ملاحظة إكرام الأولاد وإعزازهما كي يعتزّوا بأنفسهم ولا يختاروا لها إلّا المعالي من الأقوال والأفعال ويسيروا بها نحو ما يزيِّنها ولا يشينها.

ويندرج تحت ذلك أنماط مختلفة من التعامل، منها تسمية الأولاد بالأسماء الحسنة والجميلة، ومناداتهم بالطيِّب من الألفاظ، وتكريمهم أمام الآخرين، واحترام خصوصياتهم الشخصية، والإستئذان منهم في الدخول عليهم واستخدام لوازمهم، والطلب منهم ومعاملتهم عموماً بأدب واحترام.

ومن الخطير مناداتهم أو وصفهم بالسيِّئ من الألفاظ أو

١ـ

٢ـ

الإستهزاء بهم، وما أدّبنا الدين في التعامل مع الآخرين ينطبق على مجال التعامل مع الأولاد بإمتياز.

قال تعالىٰ: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا لا يَسخَر قَومٌ مِن قوم عَسَىٰ أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عَسَىٰ أن يَكُنَّ خَيراً منهنّ...﴾[1].

وقد يفرح بعض الآباء عندما يجدون الولد مسحوق الذات لايرد لهم طلباً ولا يريد لنفسه شيئاً، بتواضع مفرط، إلّا أنّ ذلك يضرّ بشخصيّة الولد ومستقبل حياته في الأسرة والمجتمع، لأنّه سيكون ضعيف الشخصية يستجيب للضغوطات الإجتماعية ولا يملك الشجاعة للدفاع عن حقوقه، ولذا فإنّ التربية الصحيحة لاتلغي ذات الولد، بل تؤكّدها، لكي تكون له شخصيّته المتماسكة داخلياً والتي تملك في المستقبل قدرة الإختيار وانتخاب الموقف الصالح، لا الإستجابة للآخرين والتأثُّر المطلق بالمحيط.

وممّا يُعَزِّز ويُمَتِّن شخصية الولد، أن يعطىٰ فرصة لإختيار ما يخصّه من اللباس المناسب والألوان التي يحبّها، أو نوع الغذاء الذي يشتهيه، عند وجود فرصة للإختيار، وأن تصاغ كثير من الأوامر العادية بصيغة العرض والطلب، وإعطاء الولد فرصة التعبير عن رأيه، وحقّ الإمتناع عمّا لايرغب فيه، ممّا لايضرّه تركه..

وكذلك إعطاء الولد الفرصة لإبراز ملكاته وتنفيذ رغباته

---

١ ـ الحجرات/ ١١.

المشروعة، لأنّه يحتاج إلى أن يرضي نفسه الطموحة ويجلب إستحسان الآخرين فيما هو حسن وجميل فيه، ولا يتوانى الوالدان في ذكر صفاته الحسنة وأعماله الجيِّدة أمامه، تأكيداً لذاته وتشجيعاً له على اكتساب المزيد من الحسنات والعمل الصالح.

ومن المفيد أن تقترن الهدايا بذكر الدواعي لها، عندما يؤدِّي الولد عملاً جيِّداً، ولكي يحسّ الولد بأن «قيمة كل امرئ ما يحسنه» كما يقول الإمام علي(كرّم الله وجهه).

ونجاح الولد في المجتمع ومحيط العمل وتكوين أُسرة سعيدة يرتبط بشكل كبير بمقدار ثقة الولد بنفسه وجرأته في الإقدام على الأعمال وتوازنه في التعامل مع الآخرين وإقامة العلاقات المحترمة معهم، والمجال الأوّل لإكتساب الولد هذه القدرات هو أسرته ومن خلال والديه بالذات.

فإذا ما كان والداه يبثّان فيه روح الإقدام ويلهمانه الشجاعة والثقة بالنفس، من خلال الثقة به والإعتماد عليه، وإعطائه الفرصة لتجربة الأعمال والتعامل مع الأشياء، ومواصلة المسيرة عند الخطأ وبعد مواجهة العقبات، ويدفعانه إلى التعامل مع الآخرين من دون خوف أو خجل، فإنّ الولد سينشأ مقداماً وواثقاً وجسوراً، يقتحم ميادين الحياة بنبل واطمئنان.

أمّا إذا واجه الطفل عبارات من قبيل:

أنت لاتقدر على ذلك،

أنت لست أهلاً للإعتماد عليك،

أنت ضعيف، أنت لست مثلي، الآخرون أفضل منك..

وغير ذلك من عبارات تزرع الوهن في نفسه وتشعره بالحقارة تجاه غيره.

وإذا كان الوالدان لايدعانه يُجرِّب الأشياء، خوفاً عليه، ويهرعان ويفزعان كلّما وقع، ويعاملانه كطفل رغم إنّه كبر، ويُحذِّرانه من كل شيء، ولا يعطيانه فرصة الإختلاط بالآخرين، ولا يصغيان لحديثه، ولا يحترمان رأيه، ولا يأخذانه معهما إلى خارج البيت ليطّلع عن قُرب على مرافق الحياة ومشاكلها..

إذا كان كل ذلك، فلا يتوقّعان من ولدهما إعجازاً أو إنجازاً كبيراً، ولا يلومانه إذا تعثّر ووقع أسير ضعفه وجُبنه، وتلكأ في مسيرة حياته أو فشل في إدارة أسرته أو غلبه الشعور بالإحباط والوهن واستسلم لضغوطات الحياة.

٢ ـ النظرة الإيجابية إلى الحياة:

لعلّ كثيراً من الناس يتمنّىٰ أن يكون من سُكّان سويسرا، البلد الأكثر جمالاً ورفاهاً في العالم، حيث الطبيعة الخلّابة والنظام الآمن المستقر، والإيراد المالي الأكثر للفرد العادي.. ولكن مع كل هذا فإنّ نسبة الإنتحار في سويسرا عالية جداً، حيث يحتل البلد المرتبة الخامسة بين بلدان العالم في هذا المجال.

إنّ المال والجمال والإمكانيات المادّية والنظم الحديثة قد تكون قد حلَّت الكثير من مشاكل الإنسان ومتاعبه في الحياة، ولكنها لم تستطع أن تملأ الفراغ الذي في قلبه، فراغ الإيمان والإحساس بالمعنىٰ والهدف لهذه الحياة، والتي باتت مُملّة في نظر الكثيرين، حتى عاد الملل هديّة الحداثة للإنسان المعاصر.

إنّ الإيمان بالله تعالىٰ وبوجود هدف سامٍ للحياة، وهو يتلخص، كما في تعابير بعض العرفاء، بطاعة الحق وخدمة الخلق.. إنّ وجود هذا الهدف اليومي والمستمر مع أنفاس الإنسان يعطي لحياته معنىً ومآلاً وجمالاً وكمالاً، حيث يجد المرء في أفراح الحياة وأتراحها، في راحتها ومتاعبها، لذّة وطعماً تسهل معه الصعاب، لأنّ الإنسان يقترب من خلال ذلك إلى مبتغاه ويواصل الدرب على طريق رضاه: ﴿يا أيُّها الإ نسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه﴾[1].

أمّا الإنسان الذي لا إيمان ولا هدف له في حياته، فإنّه لايجد معنىً لوجوده، ولا يحسّ عندها تفسيراً لآلامه ومعاناته، ولذا قد تضيق به الدنيا بما وسعت، ولا يتمتع بلذّة الفرح والراحة والسعادة، بل لايرىٰ من الأيام إلّا مصاعبها ومتاعبها.. وقد يُفكِّر عندها بالموت لينهي هذه المعاناة التي لايفهمها ولا يهضمها، كما

١ـ الإنشقاق/٦.

يقول تعالىٰ: ﴿ومَن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكا... ﴾[1].

من هنا تختلف الحياة بمقدار ما تختلف النظرة إليها، ومن هنا يسعد الإنسان أو يشقىٰ، لأنّ الدُّنيا هي كما يتصوّرها، فهي في ذهنه وصدره وفكره وقلبه، مرسومة بالأسود والأبيض، أو ملوّنة جميلة، لا كما هي في واقعها الخارجي.

ولذا كان من المهم بمكان أن نعمل على أن تكون نظرة الأولاد إلى الحياة نظرة أمل ورجاء، تحمل هدفاً سامياً ومعنىً جميلاً، كما نتصوّر.

ولابدّ في ظل تلك النظرة أن نعي الحياة، ويعيها أولادنا.. فالحياة ليست دار هناء ومستقر، بل هي دار عناء وكفاح ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾[2]، يتكامل من خلالها الإنسان ويشعر بالسعادة كلّما اقترب من أهدافه السامية، كلّما كملت نفسه وعلت همته وكثر الخير في وجوده، له ولغيره.

ومن هنا تكون السعادة، لأنّها كما يُعرِّفها علماء النفس، القناعة والرِّضا، فإذا ما رضي الإنسان عن نفسه وما يُؤدِّيه من نفع له وللآخرين، وما يقترب به من ربّه.. غمرت نفسه مشاعر السعادة وقنع من الدُّنيا بما هو فيها.

وتكون عندها أيّام الله كلّها طيِّبة، برضاه، فلا نحسُّ فيها بملل

---

١ ـ طه/ ١٢٤.

٢ ـ البلد/ ٤.

ولا ضجر، وإنّما يضجر الإنسان حيث يرتكب ذنباً أو يُسبِّب لنفسه أو لغيره أذىً، فتظلم نفسه ولو لسويعات أو أيّام، فإذا ما تذكّر الله وبادر بالتوبة والإستغفار وأعقب ذلك بالندم والعمل في الإتجاه الصحيح، بالصالحات وما ينفع الناس، ذهب عنه هذا الشعور وامتلأت نفسه بالرَّحمة والنُّور وشعر بالرضا والسعادة والسكون والاطمئنان.

قال تعالىٰ: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1]، ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[2].

ومع كل ما ذكر، فإنّ تلك المشاعر لاتكفي في إيجادها الأفكار، بل قد تؤدِّي أصناف من السلوك والتعامل إلى نتائج معاكسة فتذهب الجهود أدراج الرِّياح.

فالولد يكتسب المشاعر ويتعلّم كيفية التعامل مع المسائل من خلال التقليد لوالديه والتدريب على يديهما بالأسلوب الذي يتعاملان معه ومع الأشياء والأحداث المختلفة.

فطريقة تعاملنا مع أنفسنا، ومع غيرنا، مع الزوجة والأولاد تنعكس بصورة تلقائية في مرآة الولد ليرىٰ من خلالها الأشياء، متفائلاً أو متشائماً، إلى الحياة.

ترىٰ هل يمكن للولد أن يكون منفتحاً وصبوراً ومنشرحاً إذا

١-

٢-

كان يجد الشكوى تعم حياته من كل جانب، والملامة والتذمُّر يسود البيت حتى كأنّه أحد أركانه؟

هل يمكن للولد أن يستقبل الصباح كصباح مفعم بالأمل والنشاط إذا كان يجد الوجوه تصبح مدلهمة وتمسي مكفهرة؟

هل يمكن أن يجد الولد لوجوده معنىً ولحياته طعماً إذا كُنّا نعامله بإحتقار ونقابل عطاءه وخدماته بإزدراء، فلا نشكره ولا نذكره بكلمة طيِّبة يحسّ بها بغبطة لحظاته وقيمة حياته؟

جاء في الأثر: «لاتعادوا الأيام فتعاديكم».

وجاء أيضاً النهي عن سبّ الأزمنة، لأنّها أيّام الله، ولا تسبّ الأمكنة أيضاً، لأنّها فضاءات طاعته، والساعات، لأنّها مجالات عبادته.. وكلّها أزمنة خير وأمكنة خير وساعات خير، وإنّما الإنسان هو الذي يسيء بها، فتكون شرّاً عليه.

لذا من المفيد جدّاً أن نستقبل الأيام والساعات بذكر الله، ولعلّ تلك إحدى حكم وعطاءات صلواته الخمس، وأن نفتتحها ونختتمها بتسبيح الله وحمده وشكره، فإنّ الإنسان المُسبِّح منفتح دوماً على وجود الله، بما يحمل من خير وعطاء، والإنسان الشاكر، يستذوق طعم الرِّضا والسعادة في كل آن.

أن نبدأ الصباح بتحيّة الصباح وإسباغ السلام على جميع أفراد العائلة، وليكن الوالد هو البادئ قبل غيره، يقابل الأولاد بتحيّة وسلام ومودّة وابتسامة.

أن نتعلّم كيف نقابل المتاعب ونحن نبتسم، وكيف نواجه الصعاب ونحن نصر على المضي وعدم الإستسلام.

أن نبعث الأمل في نفوس الآخرين، أن نُردِّد معهم الآية الكريمة: ﴿إنّ مع العُسر يُسراً﴾، فهذا قانون حياتي.. فما من عُسر إلّا وينقضي ليذهب بعيداً ولا تبقىٰ منه إلّا الذكريات، وقد تنسىٰ.

لنشدّ على أيدي بعضنا بعضاً عند السلام ونبتسم لبعضنا بعضاً عند الكلام، ونحترم بعضنا بعضاً ونبث في الآخرين روح الثقة بالنفس والتوكل على الله، وهذا مبدأ علمي يقوم على أساس الإسناد الإجتماعي بدلاً من التثبيط والإحباط المتبادل.

وهكذا يتحوّل البيت إلى وحدة إسناد وإرشاد وتعضيد وتكريم ومحل استراحة واستعادة أنفاس وعزم وتصميم لبدء يوم جديد ناشط نابض بالحياة.

وبذا تترتّب الأفكار مع المشاعر والأعمال في منظومة حياتيّة رائعة تتواصل فيها الأيام مع الأحلام المتطلِّعة نحو غد مشرق ومبارك.

٣ـ تأثير الأفكار المسبقة:

في سنة ١٩٣٠م، كتب (برتراند راسل) كتاباً عن الطريق إلى السعادة، تبنّىٰ فيه فلسفة للسعادة الإنسانية تستخلص أساسياتها من أنّ العقيدة تحكم السلوك وأنّ التفكير في أُمور الحياة بطريقة منطقيّة ومُتعقّلة تصحبه أيضاً حياة وجدانية

هادئة وخالية من الإضطراب.

وقد تنبّه الفلاسفة اليونانيون منذ القدم إلى أنّ الطريقة التي تدرك بها الأشياء، وليست الأشياء نفسها هي التي تسمّ سلوكنا بالإضطراب أو السواء، وفي هذا الصدد يقول (أبقورس): «لايضطرب الناس من الأشياء، ولكن من الآراء التي يحملونها عنها»[1].

لنضرب لذلك مثلاً: فالصوم، بما يحمل من جوع وامتناع عن الطعام والشراب، قد يُسبِّب آلاماً في المعدة ومتاعب نفسيّة للإنسان العادي، لكن الصائم المؤمن يجد في صومه لذّة وراحة، لأنّه يحمل عقيدة وفكرة، بأن ذلك يُقرِّبه من الله ويُحقِّق له السعادة.

ومثلاً آخر في السلوك الإجتماعي: إذا ما قابل أحدٌ شخصاً يتهجّم عليه ويشتمه، فإنّه سيستفز فيه قواه الغضبية وقد يقابله بالمثل، أو أكثر منه.. ولكن إذا علم الإنسان مسبقاً بأن هذا الشخص المُتهجِّم مريض ومجنون، فإنّه يقابله ببرود ويمرّ عليه بسلام، لأنّه علم بأن هذا الشخص لايفهم ما يقول وهو معذور في سلوكه الذي لايستطيع ضبطه.

وهكذا تُحدِّد الأفكار المسبقة طريقة تعاملنا مع الأشياء،

---

١ ـ انظر: د. عبدالستار إبراهيم، العلاج النفسي الحديث قوة للإنسان، سلسلة عالم المعرفة (٢٧)، ص٢١٦ – ٢٢٢.

وتؤثر الأفكار التي نتداولها في الأسرة في نشوء الأولاد، وفي نمط علاقتنا بهم.

ولتغيير الأسرة، بل المجتمع، نحو الأفضل، لابدّ أن نبدأ من أنفسنا بتصحيح عقائدنا، واتباع القول الأحسن، في حياتنا: ﴿إنّ الله لا يُغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم﴾[1].

لنأخذ مثلاً عملياً في حياتنا: كثيراً ما يضرب الآباء مثلاً عن السعادة في الحياة والتوفيق والنجاح فيها بالأشخاص الذين يملكون ثروة ومالاً وبلغوا العُلىٰ في حساباتهم المصرفية.. إنّهم أصحاب الملايين، بل المليارات..

وهذا بدوره يُركِّز فكرة خاطئة في ذهن الإنسان المتلقي (ولداً أو غيره) بأنّ السعادة = الثروة والمال.

وهي فكرة تخالف العلم والتجربة الدنيويّة، فضلاً عن الأخرويّة.

فالسعادة في تعريف علماء النفس تعني الرِّضا عن النفس، وهي كذلك في معناها الديني، كما قال تعالىٰ: ﴿يا أيّتها النفس المطمئنّة * ارجعي إلى ربّك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنّتي﴾[2].

وإذا ما قرأنا تاريخ العالم بماضيه وحاضره، نجد أنّ كثيراً

---

١ ـ الرَّعد/ ١١.

٢ ـ الفجر/ ٢٧ ـ ٣٠.

من التُّعساء كانوا أغنياء، وكثيراً من السُّعداء كانوا فقراء.

هذه الفكرة لو استقرّت في ذهن الولد، فإنّها ستلاحقه طيلة حياته، ليبتئس حين لايجد نفسه بين الأغنياء وسيجعل تحصيل المال هدفه الأوّل، لا العلم، ولا العمل الصالح، ولا نفع الناس ولا بناء البلد.

ونموذج آخر على الأفكار الخاطئة المسبقة والتي تؤثر سلباً على العلاقات الأسرية ونشأة الأولاد:

إنّ بعض الآباء يرىٰ نجاح تربيته وتوفيق أسرته في أن يطيعه الأولاد في كل شيء ولا يردوا له كلمته.. ويرىٰ في المقابل أنّ الولد يعصيه حين يعمل برأيه، لا برأي والده، وقد يؤدّي ذلك ببعض الآباء إلى اعتبار الولد عاقاً مستحقاً للّعن والطرد وسوء العاقبة، كما لو إذا أصرّ الولد على الزواج من بنت يحبّها ولكن لايرضاها الوالد أو الوالدة، أو أنّه اشتغل بشغل لا يحبانه، أو اشترى حاجة لم يقتنعا بفائدتها له.

إنّ هذه الفكرة: «الطاعة المطلقة للولد لوالديه» تحمل عدّة أخطاء منهجيّة ولها آثار سلوكية خطيرة.

فليس هناك في الإسلام طاعة مطلقة لبشر، سواء كان والداً أو غيره، فالطاعة المطلقة هي لله تعالىٰ، لا غيره.

وليس المطلوب مع بلوغ الولد ورشده طاعة الوالدين، بل المطلوب البرّ بهما والإحسان إليهما.

وليس من البرّ أن يعيش الإنسان كما يريد والداه: يتزوّج مَن يريدان، ويسكن حيث يشاءان، ويدرس ما يرغبان به.. إنّ ذلك ليس واجباً على الولد، فللولد حياته التي يعيشها هو ويختارها هو.. نعم، في رعاية رغبة والديه، مع عدم الإضرار بحياته أو إختياره، بر وإحسان.

كما إنّ من سلامة التربية وبناء شخصية الولد أن يكون له رأي واختيار، وأن تكون له شخصية مستقلة، يوازن بين الأُمور بعقله، ويختار الصالح منها لنفسه.

إنّ الشخص المُطيع، كما يراه البعض، ويريده: إمّعة.. إنّ هذا الشخص غير مكتمل الشخصية، ويحتاج إلى إعادة تربية وتأهيل، ولو استمرّ هكذا في حياته فإنّه قد لايوفق للنجاح في المجتمع والعيش بسعادة.

إنّ هذا الشخص سوف لا يتمتّع بالحياة ولا يشعر بالسعادة لأنّه يعيش لغيره، لا لنفسه ولا ينعم بالحريّة التي وهبها الله كأغلىٰ شيء في الحياة.

ومن الأفكار الخاطئة الأخرىٰ: توقع النجاح المتساوي من كل الأولاد، أو توقع النجاح من الولد في كل المجالات.

إنّ الأولاد كأصابع اليد الواحدة غير متساوين في القابليات وليسوا متشابهين في الميول والإتجاهات.. هكذا خلق الله تعالى البشر متفاوتين لتتنوّع الإختصاصات وتتوزّع الأعمال وتسير

الحياة.

قال تعالىٰ: ﴿وفضّلنا بعضهم على بعض في الرِّزق ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾[1].

والأولاد يتنوّعون، بعضهم يمتلك استعداداً للعمل العلمي والإبداع الفكري، وآخرون يملكون قابليات عملية كبيرة، والتوفيق إنّما يكون عندما يُوجّه الولد إلى المجال المؤهل له ليبدع ويتقدّم.

ولم يكن التوفيق يوماً محصوراً في الطب أو الهندسة.. فهناك مجالات علمية كثيرة، كما لم يكن التقدُّم متوقفاً على التحصيل الجامعي وكسب الشهادات، فهناك دوماً موفّقون سطّروا نجاحاتهم في ميادين العمل، وكانوا مضرب الأمثال للنجاح في الحياة.

ومن الأفكار الخاطئة أيضاً: فكرة الكمال المطلق وعدم الخطأ.

فالإنسان بفطرته ينحو نحو الكمال المطلق ويريد لحياته أن تكون بأفضل حال، وهذا بحد ذاته جميل ومطلوب لأنّه يُحفِّز الإنسان إلى التحرُّك والعمل لإصلاح ذاته وتحسين أحواله.

ولكن النظريّة تختلف عن الواقع الذي يواجه فيه الإنسان المعوقات والنقص في الإمكانيات وغيرها من العوامل التي قد تجعل الإنسان لايصل إلى مطلوبه ١٠٠٪، وإنّما قد يُحقِّق النجاح

---

١ ـ الزخرف / ٣٢.

بنسبة مقبولة، وقد يفشل أحياناً لتعذر تحقيق الهدف المنشود، أو قصوره أو تقصيره في العمل.

وهنا تبدأ المعضلة، فالناس النظريّون غير الواقعيين، والذين يريدون الأُمور تامّة، سيواجهون مشكلة حقيقية من الشعور بالإحباط والفشل، ومن ثمّ الكآبة والندم، ممّا يجعلهم يواجهون أزمة نفسيّة حقيقية تدفعهم إلى التراجع إلى الخلف، وترك العمل وإخلاء الساحة.

أمّا الناس العمليّون، والذين يفهمون الواقع، وأنّه لن يكون كاملاً تاماً، فالكمال لله وحده، فإنّهم يقبلون النجاح الجزئي، ولكن يسعون لتحقيق الأفضل، وإذا ما فشلوا فإنّ الفشل يدفعهم إلى التقدُّم إلى الأمام بعد دراسة التجربة وأسباب الإخفاق، ومن ثمّ إعادة الكرة بإستعداد أفضل مع تحشيد أكثر للطاقات واقتناص الفرص المناسبة.

فالحياة فيها حلو ومرّ، وفشل ونجاح، وربح وخسارة، والتوفيق هو في الإستفادة من التجارب والمضي قدماً.

قال تعالىٰ: ﴿وأنّ ليس للإنسان إلّا ما سعى وأن سعيه سوف يرىٰ﴾[1].

٤ - ضبط الإنفعالات النفسية:

---

١ ـ النجم/ ٤٠ - ٣٩.

من معالم الصحّة والسلامة النفسية الأساسية، السيطرة على الإنفعالات النفسية والتعبير عنها حسب ما تقتضيه الضرورة وبشكل مناسب ومنضبط مع المواقف المختلفة، والتعامل مع أحداث الحياة وضغوطاتها بإنفعال نفسي معتدل بلا إفراط ولا تفريط، بالشكل الذي يساعد الفرد على المواجهة المتماسكة والواعية لظروف الحياة دون أن يضطرب أو ينهار للضغوط أو الصعوبات التي تواجهه.

«إنّ الشخص الناجح انفعالياً يستطيع أن يعيش مع انفعالاته بإرتياح بدون أن تسيطر عليه أو تغيِّر تفكيره أو توجِّه سلوكه، فلا يكون في حرب معها، بل يتعامل معها بإتزان»*.

والإنسان، بطبعه منفعل ومتفاعل مع قضايا الحياة التي يسمع بها أو يواجهها، لأنّ هذا الإنفعال والتفاعل يخلق عنده الحافز لمواجه الواقع والتعامل معه بما يتطلّب من فعل أو موقف.

لنأخذ لذلك مثلاً: إذا واجه الإنسان خطراً يُهدِّد حياته، فإنّ الغدد الكظرية التي بداخله تفرز أنزيمات، ومن أهمّها الكورتيزون والتي بدورها تزيد من استعداده الجسمي والنفسي لمواجهة الخطر، حفاظاً على سلامته وحياته.

ولكن يأتي هنا دور الوعي والإرادة والتحرّك المدروس لكي

---

* ـ انظر: أساسيات الصحة النفسي والعلاج النفسي، د. رشاد علي عبدالعزيز موسى، ص ٢٤.

تكون تلك الإنفعالات ومردود الأفعال منضبطة وموجهة بالإتجاه الصحيح، فلا يستسلم الإنسان للقلق والخوف وينهار فلا يعمل شيئاً فيكون فريسة سهلة لغيره، ولا يخرج بطوره عن السيطرة ليغلب عليه الهلع والفزع ويتصرّف لا إرادياً فيقترب من الخطر من حيث لايشعر ويعرض نفسه للهلاك، وإنّما يكون حذراً متيقظاً يعمل لإبعاد الخطر عنه وتجنّبه بحكمة ووعي، من دون تأزُّم أو تولّد مشاعر سلبية تخلفها الأزمة وتترك آثارها في النفس والسلوك.

وتصنّف مشاعر التأزُّم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ **مشاعر الحزن والإكتئاب**: وتضم مشاعر الغم والكدر والهم واليأس والقنوط والعجز والدونية والذنب والحسرة وغيرها من المشاعر التي قد تفضي إلى الإكتئاب النفسي أو الذهاني، وقد تنتهي بالإنتحار.

٢ ـ **مشاعر الخوف والقلق**: وتضم مشاعر الهمّ والشكّ والتوجّس والتهديد والفزع والرُّعب والهلع والجزع وغيرها من المشاعر التي قد تفضي إلى الإضطرابات النفسية والأمراض السيكوسامائية أو تؤدي إلى الإضطراب العقلي.

٣ ـ **مشاعر الغضب والحقد**: وتضم مشاعر الحنق والغيظ والضيق والقهر والظلم والكراهية وغيرها من المشاعر التي قد

تدفع إلى الإنتقام والعدوان والعنف الأسري[1].

القـرآن الكـريم شـخّص حالة الإنسـان وطبيعته المـنفعلة والمضطربة، والتي تتجه ذات اليمين وذات الشمال، في مـواجـهة القضايا، إفـراطـاً أو تـفريطاً، ليـغلب عـليها الحـزن واليأس تـارة، والإندفاع والطغيان تارة أخرى، وبَيَّن أنّ الهـدف مـن الكـثير مـن التشريعات الإلٰهيّة هي حفظ التوازن في شخصية الإنسـان حـتى يستطيع التفاعل مع مسائل الحياة المـختلفة بـإعتدال واطـمئنان، بلا جزع ولا هلع ولا غرور ولا اضطراب.

﴿إنّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وإذا مَسَّهُ الخَيرُ مَنوعاً * إلّا المُصَلِّين * الّذِينَ هُم عَلَى صَلاتِهِم دَائِمُونَ * وَالّـذِينَ يُصَدِّقونَ بِيَومِ الدِّينِ * وَالّذينَ هُم مِن عَذَابِ رَبِّـهِم مُشـفِقُونَ * إنّ عَذابَ رَبِّهِم غَيرُ مَأمُونٍ * وَالّذينَ هُم لِفُرُوجِهِم حَافِظُونَ * إلّا عَـلَى أزوَاجِهِم أو مَا مَلَكَت أيمَانُهُم فَإنّهُم غَيرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابتَغَىٰ وَرَاءَ ذلكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ العَادُونَ * وَالّذِينَ هُم لأمَانَاتِهِم وعَهدِهِم رَاعُونَ * وَالّذينَ هُم بِشَهادَاتِهِم قَائِمُونَ * وَالّذينَ هُم على صَلاتِهِم يُحافِظُونَ * أولئِكَ في جَنَّاتٍ مُكرَمُونَ﴾[2].

والهلع مفردة لغوية جامعة للعديد من الصـفات النـفسية التـي

---

١ ـ الأسرة والتوافق الأسـري، د. كمال إبـراهـيم مـرسي، دار النشـر للـجامعات، القـاهرة، ٢٠٠٨م.

٢ ـ المعارج/ ١٨ ـ ٣٥.

تُعبِّر عن الإنفعال السلبي.. ومن هذه الصفات التي نجدها في كتب اللغة: الحرص، الجزع وقلة الصبر، الحزن، الشره، الضجر، الفزع، الجبن، الضعف، النزق والخفة، السرعة، النفور، اللؤم... والأصل في الكلمة من ناقة هِلواع وهِلواعة: سريعة شهمة الفؤاد وتخاف السوط.. وقيل: هي التي تضجر فتسرع في السير...[1].

وأنت تجد هذه المعاني تُعبِّر بإبداع وبلاغة عن «النفس المتأزّمة» المتسرِّعة الضعيفة المضطربة، التي تبدي مشاعر التأزُّم بأنواعها عند كل حدث، إن كان شرّاً فتتكمش على الذات سلباً، وإن كان خيراً فتخف وتنزق وتنزلق وتشره، فلا تقف عند حدود الحق والعدل في الحالتين.

وأكثر انفعال ضرراً وخطراً هو الغضب، وهو «جمرة من الشيطان»، كما في المأثور عن رسول الله(ص)، «وهو مفتاح كل شر»[2].

وقد طلب أحد أصحاب النبي(ص) منه أن يعظه ويوصه، فأجابه النبي(ص) بجملة قصيرة ولكنها جامعة لمفاتح الخير، مانعة لأبواب الشر، فقال(ص): «لاتغضب»[3].

---

١ ـ لسان العرب، ابن منظور، ج١٥، ص١١٥، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٢ ـ قول الإمام جعفر الصادق، من أئمة أهل البيت (ع)، رواه في الكافي: ج٢، ص٣٠٢.

٣ ـ الترغيب والتهذيب: ج٣، ص٤٤٥، رواه أحمد.

وبَيَّن الرسول الكريم(ص) معالم قوة الشخصية ومتانتها حين سأل أصحابه يوماً: ما الصّرعة فيكم؟ قالوا: الشديد الذي لايوضع جنبه، فقال: ليس الشديد بالصرعة، إنّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1].

وعن الإمام الصادق: «الغضب يُفسد الألباب ويُبعد عن الصواب»[2]، وعنه أيضاً: «مَنْ لم يملك غضبه، لم يملك عقله».

وهكذا نجد في الأحاديث والوصايا الإسلامية، التأكيد، كل التأكيد على ضبط الإنفعال، عند الغضب، وهو أقوىٰ أنواع الإضطراب النفسي، الذي قد يُدمِّر حياة الإنسان والآخرين من حوله، فهو يوقع الإنسان في شتّى المهالك، ويجعله بذلك محط غضب الله تعالىٰ وسخطه، لذا رُوِي أنّ رجلاً قال لرسول الله(ص): «يا رسول الله ما ينجيني من غضب الله؟ قال: لاتغضب»[3].

وكل ذلك لأنّ الغضب يخرج الإنسان عن السيطرة على نفسه، ويفقد العقل توازنه وتحكّمه بالحواس، ويهيج نار الحقد والضغينة في القلب ويحرِّك الحواس نحو البطش والظلم والعدوان.

وقد ذهب البعض إلى التنفيس عن الغضب بإظهار بعضه أو

---

١ و ٥ ـ مكارم الأخلاق، الحافظ ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد عطا، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

٢ ـ غرر الحكم.

التعبير عنه في مواقف معيّنة بصورة جزئية يُخفِّف من حدّة الغضب، ولكن الرأي العلمي الذي أثبتته تجارب عالم النفس (Kahn) هو: أنّ مَن يُعبِّر عن دوافعه العدوانية أو يُراقبها لدى الآخرين، سوف يعيش تفاقماً لعدوانيته الخاصة، فإنّ إطلاق مشاعرنا العدوانية تجاه خصومنا، سواء أكان ذلك شفوياً أم جدّياً، لن يُخفِّف ميلنا إلى العدوان، ولكن يستطيع المرء بالتأكيد أن يُخفِّض الدوافع للإعتداء الجسدي على الآخرين إذا تعلّم التعامُل مع الخصوم عن طريق الحوار الشفهي المفيد.

وبالتالي، فإنّ طريق الحل هو في تحكم الذات بالفعل العقلاني: أي عدم الغضب[١].

وعودة إلى القرآن الكريم، وفيه تبيان كل شيء، فإنّه أكّد على كظم الغيظ، إذ يقول تعالىٰ، في معرض وصفه للمتقين: ﴿الذين يُنفقون في السَّرَّاء والضَّرَّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبُّ المحسنين﴾[٢].

وفيه بيان واضح بارتباط التقوى التي تمنع الإنسان عن الظلم والبغي والفواحش.. وبكظم الغيظ الذي هو بمثابة الكاتم لأنفاس الغضب المشتعل في نفس الإنسان، الدافع له نحو الظلم والخطأ.

وهناك في الآية المباركة، إشارة لطيفة في الجمع بين هذه

---

١ ـ فن العدوان، بيتر غروبر، تعريب: نوال الحنبلي، مكتبة العبيكان، ط ١، ٢٠٠٤م.

٢ ـ آل عمران/ ١٣٤.

الفضائل: الإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس.. وكلّها صفات للمحسنين، الذين يتحلّون بروح المحبّة للآخرين، فيعفون عنهم ويسامحونهم إذا أخطأوا، ويكظمون غيظهم إذا أسيء إليهم.. وكيف لا وهم يعملون من أجل إسعاد الناس وينفقون أموالهم من أجل سعادتهم وصلاح المجتمع وتقدّمه.

وقد بيّن بعض علماء الأخلاق الطريق إلى ضبط الغضب، من خلال إزالة أسبابه، الفكريّة والنفسيّة والسلوكيّة، قال أبو حامد الغزالي: «قد عرفت أنّ علاج كل علّة بحسم مادتها وإزالة أسبابها، فلابدّ من معرفة أسباب الغضب.

وقد قال يحيىٰ لعيسىٰ(ع): أي شيء أشدّ؟ قال عيسىٰ: الكِبَرُ والفخر والتعزُّز والحميّة.

والأسباب المهيجة للغضب هي: الزهو، والعُجب، والمِزاح، والهَزَل، والتعيير، والمجاراة، والمضادة، والغَدر، وشدّة الحرص على فضول المال والجاه.

وهي بأجمعها أخلاق ردّية مذمومة شرعاً ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلابدّ من إزالة هذه الأسباب بأضدادها...»[1].

وفي المأثور، عن رسول الله(ص): «يا علي لاتغضب، فإذا

---

١ ـ المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٣٠٤.

غضبت فاقعد وتفكر في قدرة الرب على العباد وحِلمه عنهم...»[1].

وعنه (ص) أيضاً: «إنّ الغضب من الشيطان، وإنّ الشيطان خلق من النار، وإنّما تُطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضّأ»[2].

وعن الإمام علي: «داوو الغضب بالصمت، والشهوة بالعقل»[3].

وأخيراً، كيف يعمل الوالدان على تربية أبنائهما على ضبط الإنفعالات وإدارة الأزمات بوعي وإيجابية؟

من المعلوم أنّ شخصية الطفل النفسيّة تتكوّن غالباً في الطفولة الأُولىٰ، أي في السني الثلاثة الأُولىٰ من عمره.. بل إنّ من شخصية الطفل ما يتشكّل عند الحمل والولادة والسنة الأُولىٰ، وأكثر التأثير يكون أوّلاً للحالة النفسية للأُم عند الحمل والرضاع ومن ثمّ سلوك الوالدين الفردي والأسري والذي ينعكس في نفس الطفل كانعكاس صورة الأشياء في المرآة الصافية.. ولذلك كان الطفل مقلِّداً لهما بالدرجة الأُولىٰ قبل أن يكون متعلِّماً.

وبالتالي، فإنّ من الأهميّة بمكان أن يحافظ الوالدان على هدوئهما النفسيّ ويؤكِّدا توافقهما الأسري، حتّى تعم نفس الطفل الأمان والإطمئنان ويشعر بالإنسجام والوئام مع عائلته المبنية

---

١ ـ تحف العقول عن آل الرسول، ابن شعبة الحراني، ص١٨.

٢ ـ الترغيب والتهذيب، ج٣، ص٤٥٢، رواه أبو داود.

٣ ـ غرر الحكم.

دعائمها على أساس المودّة والرحمة.

ولا يخلو بيت من أزمة تمر به أو معضلة تواجه الأسرة ويأتي هنا دور الوالدين، وسائر أفراد الأسرة، في ترسيخ التعامل الإيجابي والمتوازن مع الأحداث، فإذا ما واجهوها بتأن وصبر وحكمة تعلّم الولد ذلك وانطبع في نفسه، وسيقوم بمواجهة قضايا الحياة بنفس الروحية والحيوية.

أمّا إذا ساد الهلع والإضطراب جو الأُسرة وواجه الوالدان الأُمور بحسّاسية مفرطة ومشاعر هائجة، فإنّ الولد يكتسب بدوه هذا السلوك ويسير على نهجه.

وكيفما نعامل الولد سيعاملنا به ويعامل الآخرين.. فإذا ما استخدمنا الشدّة والعنف وبالغنا في التغليظ والمحاسبة، وظهرت على محيانا بوادر الغضب المفرطة، فإنّ الولد سيتعامل مع الآخرين بنفس الفعل وردّ الفعل، فإذا ما أخطأ انتكس وشعر بالإحباط الشديد الذي قد يعيق نجاحه وتقدمه في الحياة.. وإذا ما أخطأ الآخرون بحقّه عاملهم بقسوة وخشونة تنفّرهم منه.

إذن، لابدّ من أن يملك الوالدان زمام الأُمور بحلم وصبر وأن لايخرجا عن طورهما.. وإذا أرادا أمراً تحاورا مع أولادهما وأوضحا لهم الحال بهدوء ولطف من خلال مخاطبة عقلهم وتأكيد التوازن في انفعالاتهم.. وإذا أمرا، أمرا من دون حدّة وشدّة، وإذا أخطأ الأطفال استمعوا لأعذارهم أوّلاً وحاسبوهم

حساباً معتدلاً من دون تغليظ وتعنيف، إلّا في مواضع اسـتثنائية تتطلّب ذلك.

التربية العقلية

﴿كذلك يُبيِّنُ اللهُ لكم آياته لعلّكم تعقلون﴾[1].

ما أكّدت شريعة ولا رسالة على أهميّة العقل مثل الإسلام، وما جاء في القرآن من الحث على التفكُّر والتدبُّر والتأمُّل والتعقُّل، وعلى هدي القرآن، كانت الروايات عن النبي(ص) والمأثورات من الأقوال عن الأئمّة والصالحين.

روىٰ أنس بن مالك، قال: «أثنىٰ قوم على رجل عند رسول الله(ص)، فقال رسول الله(ص): كيف عقله، قالوا: يا رسول الله، نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال(ص): إنّ الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنّما يرتفع العباد نمواً في الدرجات وينالون الزلفىٰ من ربّهم على قدر عقولهم»[2].

ورُوِي عنه(ص) أنّه قال: «إنّما يدرك الخير كلّه بالعقل، ولا دين لمن لا عقل له»[3].

---

١ ـ البقرة/ ٢٤٢.

٢ ـ مجمع البيان، ج١٠، ص٣٢٤.

٣ ـ تحف العقول عن آل الرسول، باب مواعظ النبي(ص) وحكمه، ص٥٤، مؤسسة النشر الإسلامي، ط٢، تحقيق: علي أكبر غفاري.

فإذا كان العقل بهذه المكانة العُليا، والغاية القصوىٰ، فما هو العقل؟ وكيف يمكن أن يحصل المرء على كماله؟

عرف العقل بأنّه قوّة الإدراك التي يُميِّز بها الإنسان بين الخير والشر، والحقّ والباطل، والنافع والضار، ويقابل العقل، أي يعاكسه، الجنون والسفه والحمق والجهل بإعتبارات مختلفة.

ومن هنا، كان العقل دليل الإنسان في كل لحظات حياته وسكنات وجدانه، كالشراع الذي يوجِّه المركب، ذات اليمين وذات الشمال حتى يبلغ مقصده.

وخير تعريف لولد نريد به كماله هو أن نصفه بأنّه ولد عاقل، فهو يفوق أي وصف آخر، لأنّه يجمع له خير الدنيا والآخرة.

١ ـ مظاهر التعقُّل:

أهم مظاهر التعقُّل هو أن يصل بالإنسان إلى توحيد الله والعمل بطاعته، كما ورد ذلك عن رسول الله(ص)، لأنّ في طاعته جوامع الخير ومنابع اتباع الحق.. فالخير ما اختاره الله، والحق سبيله القويم، والغاية: الإنسان العاقل الذي يجمع بين الإيمان والعمل الصالح.

قال تعالىٰ: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثمّ رددناه أسفل سافلين * إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون *

فما يكذِّبك بعدُ بالدين * أليسَ اللهُ بأحكَمِ الحاكمين ﴾[1].

ولا تنحصر مهمّة العقل في هذه الدائرة الرفيعة، بل تتسع لتشمل مناحي الحياة، لتختار في دائرة الحياة، النافع والمفيد، والأفضل والأحسن، من كل شيء، فـ«الحكمة ضالّة المؤمن».

ويبدأ العاقل بنفسه، يُزيّنها بالصفات الحميدة ويُجنِّبها رذائل الأقوال والأفعال، ويسير بها في خط الإعتدال، بعيداً عن التطرُّف والغلو، أو الإهمال والتضييع.

وخير ما زُيِّنَتِ النفس: الحلم، إذ «لا خيرَ في علم لا حلم فيه»، فالحلم يشع على حياة الإنسان بالصبر والتأنِّي والسلام، ويُرطِّب الأجواء المحيطة بالإنسان، حتى يكون أنيساً ورفيقاً بمن حوله، يلطف بهم ويلطفون به.

وإذا كان لكل شيء مسار وله دليل، فإنّ «دليل العاقل التفكُّر»، ودليل التفكُّر الصمت، و«مطية العاقل التواضع» كما أثر عن الإمام الكاظم، من أئمة أهل البيت(ع).

لأنّ التفكُّر يعطي للإنسان فرصة النظر في الأمر، لمعرفة بداياته وآلياته، وأهدافه وعواقبه، وبالتالي يُهيِّئ له فرصة اتخاذ القرار السليم. والتواضع يقي الإنسان من الكبر والغرور، وهو الهاوية التي إذا سقط فيها الإنسان، قد لايخرج منها سالماً أو معافىً.

---

١ ـ التين/ ٤ ـ ٨.

٢ ـ كيف نأخذ بالولد إلى جادة العقلاء؟

إنّ ذلك لايكون بكثرة المواعظ، رغم أهميّة التذكير ببعضها في الزمان والمكان المناسب والأسلوب اللّائق والمُحبَّب إلى الولد.

ولا يكــون ذلك بكـثرة المـعلومات، رغـم أنّ الولد بـحاجة إلى بعضها ممّا ينفعه في مسيرته ويعينه على دربه.

كما إنّ الولد لايحب كثيراً لغة المـمنوعات والأوامـر المـتكرِّرة إلى حدّ الملل والإزعاج، رغم أنّها لابدّ منها في ما يـحفظ سـلامته واستقامته، من دون غلو أو إفراط فيها، ولكن الأهم من ذلك كلّه أنْ نضعه على الدرب ونُعلِّمه كيف يقود مركبة حياته بنفسه..

أن نُعلِّمه كيف يُفكِّر بشكل صـحيح، بـتهيئة الجـو الهـادئ فـي البيت، والإبتعاد عن الغضب والإنفعالات غير المنضبطة، سواء من الأب أو الأُم أو كليهما.

أن نعطيه فرصة الإنـتخاب ونسـاعده عـلى حُسـن الإخـتيار، ببيان محاسن الأشياء ومساوئها، ومساعدته على طريقة التمييز.

أن نعطيه مواصفات الشيء الحسن وأوصاف الشيء السـيِّئ والقبيح، لكي يستطيع ـ في غيابنا ـ أن يُميِّز الخبيث من الطيِّب، من الأقوال والأفعال.

أن نُنَمِّي فيه حسّ النقد، وأن نـعطيه الفـرصة لمـمارسته، ولو تجاهنا، حتى يتعلّم القيادة، لا الإنقياد، والإجتهاد، لا التقليد.

بإختصار: ينبغي أن نُبيِّن للولد منهج التعقُّل ونُحرِّك في عـقله

حسّ التفكُّر، ونُقوِّي في نفسه الثقة بالنفس، ونُزوِّده بالمعلومات التي تعينه على أن يختار، الحق دون الباطل، والخير لا الشر.

إبدأ مع الولد منذ صغره، وَصِفهُ حيث عَقُلَ، بأنّه عاقل، واطلب منه العمل الجميل لأنّه عاقل، وكافئه على حُسن عقله، وعلى حُسن عمله.

ولا تنس أن تبدأ بنفسك، وبأهلك، فكونا عاقلين معتدلين، في تعاملكما في البيت وفي المجتمع، لأنّكما مرآة الولد وقدوتاه.

ولتكن مسيرة الولد إلى كمال العقل، مسيرة العائلة جميعاً، التي تتشارك في التفكير الهادئ والتدبُّر في الأُمور ومراجعة النفس والإعتبار بالتجارب.

ولا يحتاج ذلك إلى شدّة أو تعنُّف، لأنّ ذلك قد يكسب الولد العلم، ويفقده الحلم، وبالتالي الشجرة دون الثمرة.

ولا ضير في أن يخطأ الإنسان، ولكن الضرر في أن لايعتبر من أخطائه، فلنُعلِّم أنفسنا وأولادنا أن لانستسلم إذا أخطأنا أو هَوَينا، ولا نيأس إذا أذنبنا أو غوينا، فرحمة الله وسعت كل شيء، ومداراة الآخرين ومسامحتهم من كمال العقل وجمال الحلم.

وأخيراً، أفضل وسيلة وأقرب طريق أن نأخذ من الآخرين، مسلمين وغير مسلمين، أفضل ما يقولون وأجمل ما يفعلون، كما قال تعالىٰ: ﴿فَبَشِّر عبادِ * الذين يستمعونَ القولَ فيتّبعونَ أحسَنَه﴾[1].

---

١ ـ الزُّمر/ ١٧ ـ ١٨.

٣ـ كيف نكتسب العقل؟

جملة جميلة وعبارة مختصرة، يجيبنا بها الإمام علي بن أبي طالب، وهو ربيب رسول الله(ص) وحبيبه، عن هذا السؤال: «العقل غريزة تزيد بالعلم والتجارب».

فالإنسان يولد بمخ، يحمل له عقلاً، يُميِّزه عن غيره من الموجودات، ولذا عرّف المناطقة الإنسان بأنّه: حيوان ناطق، أي حيوان مُتفكِّر، أي يستخدم عقله، في تمييز له عن عالم الحيوانات التي تستخدم غريزتها الجسمية، دون تفكُّر أو تعقُّل.

وأمامنا مصدران لزيادة العقل، هما: العلم والتجربة.

فالعلم نور يكشف بضيائه حقيقة الأشياء، فنُميِّزها، بحُسنها أو قُبحها، بجمالها أو سوئها، فـ«العقل ولادة والعلم إفادة» من كتاب نقرؤه، أو عالم نسمعه.

ولا يكفي العلم وحده، لأنّ كثيراً من الحقائق والمعارف لاتأتي إلّا من خلال التجربة في ميادين العمل، ولا تكتسب إلّا بالممارسة.. نعم، يمكن أن نمعن النظر في تجارب الآخرين ونعيشها بفكرنا وشعورنا، ونتعلّم منها المزيد ممّا يغنينا ويرفدنا، إذ «العاقل مَن وعظته التجارب».

ولكن كل ذلك، من علم وتجربة، إنّما يزيد في العقل إذا قرب الإنسان من الهدف، وهو الكمال في ذاته بما يمكنه من انتخاب طريقه الصحيح في الحياة، والذي يضمن له حُسن العواقب في

آخرته ودنياه، لا أن يكون ذلك في طريق منافع أنانية مغرضة، أو أهداف شيطانية خبيثة، لأنّ «العاقل يطلب الكمال، والجاهل يطلب المال»[1].

---

١ ـ والأقوال مأثورة عن الإمام علي بن أبي طالب.

التربية الأخلاقية

قال رسول الله(ص): «الإسلام حُسن الخُلق»[1].

وقال(ص): «الخُلق وعاء الدِّين»[2].

يُمكن القول بإختصار إنّ الإسلام رسالة الأخلاق، وإنّ الدين يهدف إلى أن يرتقي بالبشريّة إلى المستوى الرفيع من الأخلاق، حتى يعمّ الأرض التسامح والمحبّة والسلام، أليس الرسول محمّد(ص) يقول: «إنّما بُعثتُ لأُتمّم مكارم الأخلاق»[3].

وعلى هذا الأساس، كان «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً» كما رُوِي عن الرسول الكريم، ورُوِي أيضاً عنه: «إنّ أحبّكم وأقربكم منّي يوم القيامة مجلساً أحسنكم خُلقاً وأشدّكم تواضعاً».

وكان النبي(ص) أفضل الناس سلوكاً وأحسنهم أخلاقاً، أليس هو الذي عُرِفَ من قبل نبوّته بالصادق الأمين، وقد دعا الناس إلى الهُدىٰ، ولكنه لقي منهم العصيان والأذىٰ، ومع ذلك كان يعطف عليهم ويتألّم لواقعهم المظلم حتى نزل الوحي الكريم يُخفّف عنه

---

١ ـ كنز العمال، ح٥٢١٥.

٢ ـ المصدر نفسه، ح٥١٣٧.

٣ ـ كنز العمال، ح٥٢١٧.

بقوله تعالىٰ: ﴿أفمَن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حَسَناً فإنّ اللهُ يُضِلُّ مَن يشاء ويهدي مَن يشاء فلا تُذهَب نفسك عليهم حسرات إنّ الله عليم بما يصنعون﴾[1].

وكان بالرغم من كل جفاء القوم وأذاهم له يدعو لهم، يقول: «أللّهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون»[2].

فكان حقّاً كما وصفه القرآن: ﴿وإنّك لعلىٰ خُلقٍ عظيم﴾[3].

يفشي السلام في الأرض، ويواسي الفقراء والمستضعفين، ويسامح الناس ويعفو عمّن ظلمه، سخيّاً كريماً، ويعامل أهله بأفضل معاملة، وكان يقول: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[4].

لقد أدَّب الله تعالىٰ نبيّه، وكان رسول الله(ص) خُلُقُهُ القرآن.

وفي تفسير قوله عزّوجلّ: ﴿خُذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾.. قال رسول الله(ص): «هو أن تَصِل مَن قطعك وتُعطي مَن حَرَمك وتعفو عمّن ظلمك»[5].

إذن هناك ارتباط وثيق بين التربية الدينية والتربية الأخلاقية،

---

١ ـ فاطر/ ٨.

٢ ـ

٣ ـ القلم/ ٤.

٤ ـ الوسائل، الحرّ العاملي، ج ٢٠، ص ١٧١.

٥ ـ تنبيه الخواطر، ص ٧٢.

بل هما صنوان متلازمان لاينفكُّ أحدهما عن الآخر، فـ«الإسلام حُسن الخُلق» و«الخُلق وعاء الدين»، ولذا ورد في الأثر: «لمّا خلق الله تعالى الإيمان، قال: أللّهمّ قوّني، فقوّاه بحُسن الخُلق والسخاء، ولمّا خلق الله الكفر، قال: أللّهمّ قوّني، فقوّاه بالبُخل وسُوء الخُلق»[1].

ومن هنا درجت التعاليم السامية للرسول الكريم(ص) والأئمّة والصالحين والأولياء والعلماء، على التأكيد على تأديب النفس وتزيينها بحُسن الخُلق، من الفضائل والمكارم، وربط كل ذلك بإيمان الإنسان ومدىٰ تديّنه، حتى ورد عن الرسول الكريم(ص): «الخُلق الحسن نصف الدِّين»[2]، كما ورد عن الإمام علي، قوله: «عنوان صحيفة المؤمن حُسن خُلقه».

وتربط هذه المأثورات الشريفة بين درجة العبد عند ربّه وحُسن عاقبته ومكانته عنده، وبين حُسن خُلقه وكمال شخصيّته، فعن الرسول(ص): «ما يوضع في ميزان امرئٍ يوم القيامة أفضل ـ وفي رواية أثقل ـ من حُسن الخُلق»[3].

وعنه(ص) أيضاً: «مَن حَسَّنَ خُلقَهُ بلّغه الله درجة الصائم القائم».

ولا تقف الوصايا الدينية عند حدّ الحث على حُسن الخُلق

---

١ ـ المحجة البيضاء، ج٥، ص٩٠.

٢ ـ كنز العمال، ح٥١٤١.

٣ ـ الكافي، ج٢، ص٩٩.

والتأكيد على إرتباطه بالإيمان فحسب، بل تتعدىٰ إلى التحذير من سوء المعاملة وفساد الأخلاق، وأنّ ذلك يؤدّي إلى آثار سيِّئة في دنيا الإنسان وأُخراه، إذ رُوِي عن الرسول(ص): «الخُلق السيِّئ يُفسد العمل كما يُفسد الخلّ العسل».

وعنه(ص) أيضاً: «سوء الخلق ذنب لا يغتفر».

وروي أنّه سُئِل عن الشؤم، فقال: «سُوء الخُلق».

ويبلغ تأكيده على حُسن الخُلق بأن جعله أحد لوازم الإنتساب إليه، فقد رُوِي عنه: «ثلاث مَن لم تكن فيه فليس منّي ولا من الله عزّوجلّ، قيل: يا رسول الله، وما هنّ؟ قال: حلم يردّ به جهل الجاهل، وحُسن خُلق يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن معاصي الله»[1].

ولا يقتصر تأثير حُسن الخُلق أو سوئه على دين الإنسان وسعادته الأخرويّة، بل نجد في باقة من الأقوال المأثورة عن الرسول الكريم(ص) وأهل بيته، وما يفيد بتأثير حُسن الخلق على علاقات الإنسان الإجتماعية وألفته مع محيطه، ورزقه ونجاحه في الجانب الإقتصادي، وبالتالي راحته وسعادته في هذه الحياة، نقرأ بعضاً منها:

عن رسول الله(ص):

«حُسن الخُلق ذهب بخير الدُّنيا والآخرة».

«حُسن الخُلق يثبت المودّة».

---

١ ـ البحار، ج٦٩، ص٣٠٦.

وعن علي:

«حُسن الخُلق رأس كل برّ».

«أرضى الناس مَن كانت أخلاقه رضيّة».

«كفىٰ بالقناعة ملكاً وبحُسن الخُلق نعيماً».

«في سعة الأخلاق كنوز الأخلاق».

«مَن حَسُنَ خُلُقُهُ كثر محبّوه وآنست النفوس به».

«سوء الخلق يوحش القريب وينفِّر البعيد».

«لا وحشة أوحش من سوء الخلق».

وسُئِل: مَن أدوم الناس غمّاً؟ قال: «اسْوَؤُهم خُلقاً».

«عليكم بمكارم الأخلاق فإنّها رفعة وإيّاكم والأخلاق الدنيئة فإنّها تضع الشريف وتهدم المجد».

وعن جعفر الصادق:

«لا عيش أهنأ من حُسن الخُلق».

«حُسن الخُلق يزيد في الرِّزق».

وحُسن الخُلق سمة كل إنسان رفيع، إن كان مؤمناً أو غير مؤمن، لأنّها صفة ممدوحة بذاتها، ففي الأثر: «لو كُنّا لانرجو جنّة ولا نخشىٰ ناراً ولا ثواباً ولا عقاباً، لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق فإنّها ممّا تدلّ على سبيل النجاح».

١ ـ كيف السبيل إلى حُسن الخُلق؟

عرفنا ممّا سبق أهميّة حُسن الخُلق سواء على الصعيد الديني أم تأثيره على حياة الإنسان وعلاقاته بما حوله، ولكن ذلك كمن يقول: إشتر بيتاً جميلاً، ولا يصف لك مواصفات ذلك البيت ولا يدلّك على السبيل إلى إمتلاكه، ليبقى الأمر مجرّد أمانٍ أو أحلام، فكيف إذن نحصل على حُسن الخُلق وما هو؟

ابتداءً نقول بأن حُسن الخُلق أمر مفهوم عموماً لسائر الناس، لأنّ الله تعالىٰ خلق الإنسان وغرس فيه حبّ الخير والجمال وكل حسن، وفي المقابل ألهمه كره الشرّ وكل سيِّئ وقبيح، ولذا كان عقل الإنسان رسول الله المستتر فيه، والذي يدعوه إلى إكتساب المكارم وفعل الخير والإبتعاد عن كل سوء وشرّ.

ومع ذلك، فإنّ الإنسان قد يتشوّش ذهنه ويضطرب تفكيره وتتأثّر سريرته بسبب محيطه والمجتمع غير السليم الذي يعيش فيه والمبادئ المنحرفة التي تظهر في الناس بين حين وآخر، لذا كان لابدّ من بعث الأنبياء وتذكير الأولياء ودعوة الناس باستمرار إلى سبيل الله واتباع المعروف واجتناب المنكر.

ثمّ قد تختلط على الناس الأولويات فلابدّ من ترتيبها وقد تختل المقاييس فلابدّ من تنظيمها، ولذا عُدّت الأخلاق علماً يدرّس وفناً يدرّب عليه وتجربة تكتسب، وكان دوماً للذكرىٰ فيها مكان، والحاجة إليه تزداد كلّما ابتعد الإنسان عن القيم وكلّما استهلكت آلة المادّة حياته، بكل ما فيها من طمع وجشع وأحقاد وحسد، لم تجلب له إلّا الشقاء.

٢ ـ بداية الطريق، بل منتهاه:

رُوِي عن علي(ع)، قال: «إذا رغبت في المكارم فاجتنب المحارم»[1].

وهذا هو الصراط المستقيم المؤدِّي لكل خلق كريم، فإنّ الحرام يسقط الإنسان ويهوي به إلى أغوار الرَّذائل ومآوي الشيطان، وهو إذ يذلّ نفسه ويسترخص شخصه وتستزل قدمه، انجذب إلى كل شرّ وهان عليه فعله كل قبيح، وبَعُدَ بذلك عن فضائل الأخلاق أو مكارم الفعال.

تُرىٰ، مَن يسرق، هل يمكن أن يكون جواداً؟

ومَن يظلم، هل يمكن أن يكون سمحاً رؤوفاً؟

ومَن يكذب، أيسلم المسلمون من لسانه ويده؟

ومَن يزني، هل يكون عفيفاً شريفاً؟

وهكذا كان فعل كل حرام سقوطاً عن الرفعة والكمال، ولذا مَن أراد المكارم، لابدّ أن يجتنب المحارم، ومن هنا يكون الطريق، لا غيره.

ونقرأ عن علي أيضاً: «حُسن الخُلق في ثلاث: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسُّع على العيال».

---

١ ـ غرر الحكم.

ـ نفسك أوّلاً:

ثمّ إنّ الإنسان يجب أن يختار لنفسه الطريق: هل يريد أن يكون عزيزاً في ذاته، شريفاً في شخصه، رفيعاً في أخلاقه، نظيفاً في عمله، صادقاً مع نفسه ومع الآخرين؟

فإذا كان كذلك فأهلاً به في طريق المجد، ومرحباً به في منازل الشرفاء والحكماء والخالدين.

إنّ طلب كل رفعة تبدأ من ذات النفس، إنّ النفس هي عالم الإنسان، لا ما حوله من عوالم وموجودات، وكيف كانت نفس الإنسان إرتسمت لوحة الدنيا وتلوّنت بألوانها.

إستمع لقوله تعالىٰ: ﴿ومَن يُوقَ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1].

وكفىٰ بربّك عليماً وحكيماً وخبيراً وبصيراً ﴿ألا يعلمُ مَن خلقَ وهو اللطيفُ الخبير﴾[2].

ولا حدود لنفس الإنسان لأنّها خلقت من نفحة الرَّحمٰن، فهي تتّسع وتتّسع لتشمل بلطفها وعواطفها كل العوالم.. إنّها يمكن أن تكون كبيرة بحسب ما تغرف من الإيمان بالله وحبّه ورحمته، وكما قيل:

---

١ ـ الحشر/ ٩.

٢ ـ الملك/ ١٤.

أتـــزعم أنّك جــرمٌ صـــغير
وفيك انـطوى العـالَمُ الأكـبرُ

من هنا، مَن أراد المعالي فليبدأ بنفسه يُزكّيها ويُنمّيها ويرعاها ويسقيها من كل فيض طاهر ونقي ومن كل حسن وجميل، وسيجد الله يرعاه ويبارك له ويفتح له الطريق: يهديه ويعينه.

قال تعالىٰ: ﴿ومَن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ... ﴾[1].

لنعيد قراءة بعض المأثورات التي سبقت:

عن علي: «ميدانكم الأوّل أنفسكم، فإن استطعتم عليها كنتم على غيرها أقدر».

«عليكم بمكارم الأخلاق فإنّها رفعة، وإيّاكم والأخـلاق الدنـيّة فإنّها تضع الشريف وتهدم المجد».

«لو كُنّا لانرجو جنّة ولا نخشىٰ ناراً ولا ثوابـاً ولا عـقاباً لكـان ينبغي أن نطلب مكارم الأخلاق، فإنّها ممّا تدلّ على سبيل النجاح»[2].

وبعد أيضاً عن علي بن أبيطالب: «إن كنتم لا محالة متنافسين، فتنافسوا الخصال الرغيبة وخلال المجد».

فهذا هو الميدان الذي ينبغي أن يتبارىٰ فـيه النـاس ويـفتخروا ويتباهوا بما اكتسب كل إنسان من فضيلة عوض أو جود أو كرم أو رحمة أو رأفة، لا بما أعطي من مال أو جمال أو ملك لايـدوم أو

---

١ ـ الشورىٰ/ ٢٣.

٢ ـ عن جعفر الصادق.

دنيا فانية لاتصادق أحداً ولا ترافقه إلى أخراه.

إذن، الخطوة الأُولىٰ تبدأ من الإنسان نفسه: عليه أن يجتنب كل ما يُضيِّق صدره ويُعكِّر صفوه.. ويعمل على أن يكون داخله رحباً واسعاً أبيضَ وصافياً ونقياً.

لنأخذ مثالاً على ذلك: هل الحقد يُوسِّع الصدر أم يُضيِّقه؟ وهل الحسد ينقّي داخلَ الإنسان أم يلوِّثه؟

إنّ من الواضح تماماً أنّ الحلم، العفو، التسامح، الرَّحمة، مساعدة الآخرين، زيارة المرضىٰ، صلة الرَّحم، طيب اللسان، ستر الناس، إطعام المسكين، إيواء اليتيم و... إلخ، من الواضح أنّ كلّ ذلك يشرح الصدر ويريح النفس ويصفو به القلب ويرتاح به الضمير والوجدان.

فعن الإمام جعفر الصادق: «كان فيما خاطب الله تعالىٰ نبيّه (ص) أن قال له: يا محمّد، إنّك لعلىٰ خُلق عظيم، السخاء وحُسن الخُلق».

والسخاء هو الجود والكرم، وهو يكون عن حالة إنشراح وإنبساط في النفس، قبل الحسد، لذا يقال للأرض اللينة أو الواسعة من الأرض: (السخاوية)[1]، ممّا يؤكّد على أنّ إنشراح النفس وسخاءها له ارتباط بحُسن الخُلق، بل هو مقدّمة له.

وهذا كلّه ممّا تدعو إليه الأديان، إن لم تكن هي أصل دعوتها، فلا

---

١ ـ المعجم الوسيط، مادة (سخا).

مكان في الإسلام، وسائر الشرايع الإلٰهيّة للحقد والبغضاء والكراهية.

نعم، لأعداء الله شأن آخر ممّن يعتدون على الأوطان ويقتلون الناس بغير حق، فردّ البغي والعدوان أمر تسالمت عليه كل الشرايع، دينية كانت أم وضعية، وحقّ الدفاع أمر مسلّم ومتفق عليه.

وهكذا يبدأ الإنسان أوّلاً بنفسه، يُربِّيها ويُزكِّيها ويُعلِّمها جميل الأقوال وفضائل الأعمال، فإذا أفلح فيها فقد فاز، وإذا خسر في تزكيتها لم يحصل على شيء، بل خاب ظنّه وساءت عاقبته، كما قال تعالىٰ: ﴿ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح مَن زكّاها * وقد خاب مَن دسّاها﴾[1].

ومَن يبدأ بنفسه يشع على الآخرين من حوله، بنوره ورحابة صدره ويُعطِّر الأجواء بحُسن خُلقه، وسوف لن يحتاج إلى جهد كبير في تلطيف الأجواء في بيته، إذ إنّ الأولاد يكتسبون المعالي بالتقليد أوّلاً وبالتعليم المقرون بالحبّ والإحترام ثانياً، ومَن بدأ بنفسه كان أكثر أثراً في غيره، كما يقول الإمام علي: «ميدانكم الأوّل أنفسكم، فإن استطعتم عليها كنتم على غيرها أقدر، ومُعلِّم نفسه أحق بالإجلال من مُعلِّم غيره».

فإذن يبدأ الإنسان بنفسه، وعليه أن يكون صادقاً معها

---

١ ـ الشمس/٧ ـ ١٠.

وشريفاً، فلا يؤذيها بالفاحش من الأقوال ولا يخونها بسوء الفعال، لأن ﴿كلُّ نفس بما كسبت رهينة﴾[1]، فإذا كان الإنسان مُحبّاً لنفسه كان عليه أن يرتقي بها إلى كل سامٍ من القول وأن يعمل من خلالها لكل جميل من الفعال، حتى تتزكّىٰ وتفلح في كل مراحل الحياة، في هذه الدُّنيا القصيرة الأمد، أو تلك الدار الآخرة التي جعلها الله ﴿للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتّقين﴾[2].

وإذا امتلأت النفس بالخير وتزيّنت بالجميل، أفاضت ممّا فيها على الآخرين وتنعّم بجمالها الأقربون فالأقربون، وهكذا كان الإمتحان لصدق إيمان الإنسان وحقيقة أمره، أقواله وفعاله، فالمسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده.

والدائرة الأُولىٰ، خارج النفس، أُسرة الإنسان وعائلته، وكما يقول تعالىٰ: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم...﴾[3].

فمن أحبّ أسرته حقّاً جنّبها كل شرّ وجلب لهم كل خير وتعامل معها بأحسن خُلق، كما يقول الرسول الكريم(ص): «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي».

ومَن أفلح في التعامل مع أهله بالحسنىٰ فلم يظلم ولم يقسُ عليهم ووسَّع عليهم فيما يحتاجونه بما يقدر عليه، فقد انطلق من

---

١ ـ المدَّثّر/ ٣٨.

٢ ـ القصص/ ٨٣.

٣ ـ التحريم/ ٦.

قمة رفيعة من المجد، إذ إنّ ذلك سيزيده ثقة ويملؤه شعوراً بالغبطة، لأنّه كان ناجحاً في امتحانه الأوّل والذي سيؤهّله للنجاح في غيره.

ومن ثمّ الجار، الذي يوصي به الإسلام كثيراً، في القرآن وعلى لسان الرسول الكريم(ص)، فينبغي أن يحسن إليه وأن يُعامَلَ بكل طيب.. يُساعَدَ حيث يحتاج للمساعدة قبل أن يطلبها وبعد ذلك، فـ ﴿الأقربون أولىٰ بالمعروف﴾[1]، فهم رحم الإنسان وقرابته، وصلتهم واجبة، ومعاملتهم بالحُسنىٰ وتقديم المعروف إليهم مُقدَّم، فينبغي عيادة مرضاهم ورعاية يتاماهم ومساعدة المحتاجين منهم، فهم الحجر الأساس في نظام التكافل الإجتماعي في الإسلام.

وهكذا، وبحسب قدرة الإنسان، يشمل العطاء سائر الناس، فهم عباد الله وعياله، وأكرم الناس مَن أكرم عيال الله، فأطعم فقراءهم وكسىٰ يتاماهم، وعاد مرضاهم.

ووجوه البر كثيرة لاتقتصر على ذي وذاك، وحاجات الناس متنوّعة، فمن هو بحاجة إلى زواج أو عمل أو علاج أو أولاد يفتقدون المساعدة لإكمال الدراسة، ومن ذلك: الإصلاح بين الناس، وهو أفضل من عامّة الصلاة والصيام، كما جاء في الأثر الشريف، والكلمة الطيّبة وهي (صدقة)، كما ورد ذلك أيضاً.

---

١ ـ البقرة/ ١٨٠.

وهكذا لو تمّ ذلك، لتحوّل المجتمع إلى مزرعة للخير ومنبع مستفيض من العطاء، الذي يبدأ ولا ينتهي، إلّا في جنّات النعيم التي أعدّها الله تعالىٰ لعباده الصالحين، قال جلّ شأنه: ﴿وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾[1]، وصدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم.

صفات من محاسن الأخلاق:

وردت في القرآن الكريم توصيفات لأُمّهات محاسن الأخلاق، وكذا سيِّئها، وذكر القرآن قصصاً عرض فيها نماذج من السلوك المتسامي والرفيع للأنبياء والحكماء.

ففي الأثر: «أنّ رسول الله(ص) الذي كان خُلقه القرآن، قوله عزّوجلّ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾، قال رسول الله: هو أن تصل مَن قطعك وتُعطي مَن حرمك وتعفو عمّن ظلمك».

وهكذا نجد أنّ رسول الله(ص) يعرض لنا مستوىً راقياً أرفع ممّا هو معهود عند الناس، فما أكثر مَن يقاطع مَن لا يزوره، ويمنع العون عمّن لم يعينه، ويقتصّ ممّن ظلمه، بل يردّ الكيل بمكيالين ولا يهدأ بال له حتى ينتقم ويأخذ بثأره، كما هو شائع في مجتمعاتنا المُتخلِّفة عن الإسلام.

---

١ ـ البقرة/ ١١٠.

إنّ الرسول الكريم(ص) يقول: «صِلْ مَن قطعك، واعطِ مَن حرمك، واعفو عمّن ظلمك، لتكون بذلك قد أعرضت عن الجاهلين».

ويبدو أنّ نقطة الإرتكاز في حُسن الخُلق، هو عدم الغضب، إذ الغضب يجعل الإنسان يتحرّك بوحي من الغريزة ويثير فيه العصبيات الجاهلية ليملأ قلبه ناراً ودماراً، فلا يدع مجالاً للرَّحمة ولا حيّزاً للتسامح.

جاء رجل إلى رسول الله(ص) من بين يديه، فقال: «يا رسول الله، ما الدين؟ فقال: حُسن الخُلق، ثمّ أتاه من قبل شماله، فقال: ما الدين؟ فقال: حُسن الخُلق، ثمّ أتاه من ورائه، فقال: ما الدين؟ فالتفت إليه، وقال: أما تفقه الدين: هو أن لاتغضب»[1].

---

١ ـ أخرجه الطبراني في الأوسط.

التربية الدينية

. الدين في حياة الإنسان:

قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطرَةَ اللهِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عَليها لا تَبدِيلَ لِخَلقِ اللهِ ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ﴾[1].

الدين أمر فطري، أي أنّ الإنسان مجبول عليه، فلا تستقيم حياته ولا تأخذ الإتجاه الصحيح إلّا إذا قامت على أساس من الإيمان بالله تعالىٰ والإهتداء بهداه.

ففي الدين نجد الجواب الصحيح عن الأسئلة التي تبدأ ولا تنتهي، فهي آلاف، ملايين، ما لا نهاية من الإستفهامات عن كنه الحياة، مبتداها، معناها، غايتها ومنتهاها.. كيف خُلِقنا، ومَن خلقنا، ولِمَ خلقنا، وكيف نموت، إلى أين ينتهي بنا المطاف، إلى وجود آخر، أم إلى عدم، وغير ذلك من الرموز التي لاتحل، والإبهامات التي لاتفهم، إلّا من خلال الإجابات الدينية، فهي الوحيدة التي تتحدّث عن الغيب، وما سواها لاتزيد الحياة إلّا حيرة وتيهاً وضلالاً.

---

١ ـ الرُّوم/ ٣٠.

تصور إنساناً يركب في مركبة تسير به في اتجاه لايعلمه، وبسرعة تحتمل في كل لحظة له مفاجأة لايعرف ماذا يتبعها، وقائد المركبة مجهول لديه فلا يأمنه.. إنّها حركة نحو مصير مجهول، فيه الموت محقق والفناء محتوم، ولا بصيص من أمل، ولا نقطة ضوء، فحقّاً أن تكون مثل هذه الحياة حبلىٰ بالقلق والإضطراب والملل واليأس.

إنّ الدين يجعل الإنسان يسير في رحلة معلومة، معلومة الأوّل ومعلومة الآخر، وبذا يخرج الإنسان من الشك القاتل إلى اليقين الآمن، ومن الجهل المعتم إلى نور المعرفة.

لنقرأ معاً هذه الآيات التي تثير الأسئلة وتعطي عنها الإجابات: ﴿أَفَرأَيتَ الّذي تَوَلّىٰ * وأَعطَىٰ قَليلاً وأَكْدَىٰ * أَعِندَهُ عِلمُ الغَيبِ فَهُوَ يَرىٰ * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما في صُحُفِ مُوسىٰ * وإبراهِيمَ الّذي وَفّىٰ * أَلّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ أُخرىٰ * وأَن لَيسَ لِلإنسانِ إلّا ما سَعىٰ * وأنَّ سَعيَهُ سَوفَ يُرَىٰ * ثُمّ يُجْزَاهُ الجَزاءَ الأَوفَىٰ * وأنَّ إلى رَبِّكَ المُنتَهىٰ * وأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَىٰ * وأَنّهُ هوَ أَماتَ وأَحْيَا * وأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوجَينِ الذَّكَرَ والأُنثىٰ * مِن نُطفَةٍ إذا تُمْنَىٰ * وأنَّ عَلَيهِ النَّشأَةَ الأُخرىٰ * وأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وأَقْنَىٰ * وأَنّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ * وأَنَّهُ أَهلَكَ عاداً الأُولىٰ * وثَمُودَا فَما أَبقَىٰ * وقَومَ نُوحٍ مِن قَبلُ إنَّهُم كانوا هُم أَظْلَمَ وأَطْغَىٰ * والمُؤْتَفِكَةَ أَهوَىٰ * فَغَشَّاها ما غَشّىٰ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارىٰ * هٰذا

نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولىٰ ﴾[1].

لقد عرّف علماء النفس السعادة بأنّها الشعور بالطمأنينة والرِّضا[2].

الإيمان يُوفّر للإنسان الإطمئنان ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنّ القُلُوب ﴾[3]، ويمنحه القناعة والرِّضا وهما بضاعتان مفقودتان يفتقدهما أغنى الناس في العالم وأكثرهم تمكّناً من النعم واللذّات.. إنّهم يملكون كل شيء إلّا قلوبهم الحيرى الضائعة، التي تهوىٰ نحو كل متعة مادية بحثاً عن السعادة.. فتتمتّع وتمتلئ شهوة، ولكن دون أن تشعر بالرِّضا ودون أن تنعم بالاطمئنان، بل كلّما ازدادت دُنياً ازدادت فقداً وحسرة لذلك.

«مثل طالب الدُّنيا كمثل ماء البحر، كلّما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله»[4].

إنّ الدين يدع الإنسان منسجماً مع نفسه، مع قلبه، مع فطرته المغروسة في أعماق ذاته، ويخرج الإنسان من غربة الحياة ووحدتها القاتلة.. إنّ المؤمن يشعر بأنّه صديق نفسه، وحبيب ربّه، وأنّ الطبيعة من حوله ترتل ترانيم الصلاة وتعبد الخالق

---

١ ـ النجم/ ٣٣ـ٥٦.

٢ ـ انظر: كتاب سيكولوجية السعادة لمؤلفه مايكل أرجايل.

٣ ـ الرَّعد/ ٢٨.

٤ ـ ميزان الحكمة، المجلد الثالث، ص٣٣٢، كتاب الدنيا، باب مثل الدنيا.

العظيم، كما يرتلها هو، فهو ليس وحيداً وليس غريباً لايعيش في عالم مجهول، بل هو في أنس وتوافق وتجانس وتعايش مع كل الوجود الذي من حوله.

إنّه يبدأ صلاته بذكر الله وشكره وثنائه، متذكراً رحمته التي وسعت كلّ شيء، وهو ربّ العالمين، وهو الرَّحمٰن الرَّحيم، وهو الذي ترجع إليه العباد يوم الدين، وبيده حسابهم، ثوابهم وعقابهم، فينطلق إليه كلٌّ منهم متوجهاً بعبادته طالباً عونه، لينهج صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالّين﴾.

إنّه طريق المرحومين وطريق المهتدين، لا طريق المجرمين الملعونين، ولا طريق الضائعين التائهين.

وحيث يبدأ صلاته بذكر الله، الباعث على السكينة والإطمئنان، ويسير في انسجام مع الوجود ويمتلئ بالشعور بالرِّضا والسلام، ينهي صلاته ببعث رسائل سلام، إلى الرسول، إلى عباد الله الصالحين، وإلى كل الوجود من الملائكة والناس أجمعين.

إنّ الدين يجعل الإنسان ملتزم السلوك، منضبط الأفعال في مسير غير مزدحم بالأخطار والأخطاء، فالمؤمن الحق يحفظ حقوق الآخرين، كما يحفظ نفسه عن كل ما يشينها من المكاره والمعاصي.. إنّه إنسان نموذجي يستحق الإحترام والتبجيل في كل المجتمعات، دينية كانت أم غير دينية، لأن هذا الإنسان مواطن

صالح من الدرجة الأُولى، ولذا كان الدَّيِّنون أقلّ الناس جريمة وأكثرهم التزاماً بالنظم والقانون، حتى في مجتمعات متغربة بعيدة عن الدين.

ومن هنا فإنّ التربية الدينية توفر للمجتمع أفراداً سالمين وصالحين، لايصل أذاهم لغيرهم، لأنّ «المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده» كما جاء في الحديث الشريف، بل إنّ المجتمع يستفيد من وجودهم الخير، إذ جاء أيضاً: أنّ «مثل المؤمن مثل النخلة: ما أخذت منها من شيء ينفعك»[1].

والوالدان المحبّان لولدهما يعملان لتوفير الجو المناسب للتربية الدينية لأولادهما، لأن ذلك سيكون نافعاً لهم، لإسعادهم في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، إن شاء الله.

وما ذكرناه سابقاً من شرائط التنشئة الصالحة هي مقدّمات ولوازم التربية الدينية أيضاً، وإن كانت هذه التربية تحتاج إلى لوازم وشرائط إضافية ينبغي توفيرها.

وقد سبق القول بأن هدف التربية الإسلامية، هو أن يبلغ الولد الرُّشد في شخصيّته، وعُرِّف الرُّشد بأنّه خلاف الغي، وهو الإهتداء إلى مقاصد الحياة، ومن الطبيعي أن يكون الدين في مقدّمتها، لذا قال بعض العلماء فيه بأنّه: صلاح في العقل والدين، وقال بعضهم في العقل خاصّة، وهو يصح لأن مَن كمل عقله اختار

---

١ ـ الجامع الصغير، السيوطي، المجلد الثاني، رقم الحديث ٨١٤٥، ص٤٥٨.

دينه وعمل بمقاصده.

من هنا يمكن أن نجد رابطاً بين قوله تعالىٰ: ﴿فإن آنستم منهم رُشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرُّشد من الغيِّ...﴾[2]، فإذا أردت أن تدعو الناس إلى الدين، فلا حاجة إلى إكراه الناس عليه، بل يكفي أن تُهيِّئ لهم مقدّمات القرار الرشيد، من حيث بيان الدين وتوضيح مقاصده وتقريب أهدافه لهم، ليؤمنوا به بقلوبهم ويتبعوه بعقولهم.

مقاصد التربية الدينية:

أوّلاً ـ إعمال العقل:

ومن هنا سعى الإسلام إلى أن يكون قرار الإنسان رشيداً، أي عاقلاً مُصلحاً في اختياره، لا جاهلاً ولا مُفسداً، ولذا جاءت دعواته المتكرِّرة في عموم آياته وثنايا سوره لإعمال الفكر واتّباع العقل، والإبتعاد عن الجهل والتحجُّر، والتأثُّر بالقوم، بدوافع التعصُّب والهوىٰ.

ومن أهم مقدّمات ذلك أن يستمع الإنسان إلى سائر الأقوال، بسعة صدر وانشراح وبعقل نيِّر ومنفتح، ومن ثمّ يختار منها الأقرب للصواب، إذ يقول تعالىٰ: ﴿فبشِّر عِبادِ الذين يستمعون القول

---

١ ـ النِّساء/٦.

٢ ـ البقرة/٢٥٦.

فـيتّبعون أحسـنه * أولئك الذيـن هـداهـم الله وأولئك هـم أولي الألباب ﴾[1].

بل حمل القرآن بشدّة على الذين يقفلون عـقولهم ويـتعصّبون لآرائهم ولا يفتحون الباب للنظر والتأمُّل فيه، إصراراً على أقوالهم، أو تقليداً لغيرهم، وهذا هو عين الجهل والتخلُّف، بل العمىٰ، وجـاء ذلك في مواضع عديدة من القرآن، منها قوله تـعالىٰ: ﴿ وكذلكَ مـا أَرسَلْنا مِن قَبلِكَ في قَريَةٍ مِن نَذِيرٍ إلّا قالَ مُترَفوها إنّا وَجَدْنا آبـاءَنا على أُمَّةٍ وإنّا على آثارِهِم مُقتَدونَ * قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهـدىٰ مِـمّا وَجَدتم عَليهِ آباءَكُم قالوا إنّا بِما أُرسِلتُم بِهِ كافِرونَ ﴾[2].

ويستمرّ القرآن في وصف القـوم الكـافرين ـ الجـاهلين الذيـن يصدّون عن سـبيل الله ـ جـهلاً وجـحوداً وتـعصّباً وهـوىً، حـتى يصفهم بالصم ـ الذين لايسمعون ـ لأنّهم لايستمعون لمـا يـطرق آذانهم ولا يتفكّرون فيه، والعـمىٰ، لأنّـهم لايـنظرون الحـقائق ولا يتدبّرونها، فلا ينفع معهم نصح ولا يؤثر فيهم كلمة حق، إذ يـقول تعالىٰ: ﴿أَفَأَنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ أَو تَهدِي الُعمْيَ ومَن كـانَ فـي ضَـلالٍ مُبِينٍ ﴾[3].

وهكذا كـان حـال الذيـن عـاندوا المـرسلين مـن قـبل والذيـن

---

١ ـ الزُمر/ ١٧ ـ ١٨.

٢ ـ الزخرف/ ٢٣ ـ ٢٤.

٣ ـ الزخرف/ ٤٠.

يواجهون كل دعوة إصلاحيّة حقّ، بالإنكار والإستهزاء، وبالصدّ والعدوان، والتنكيل بالمؤمنين واضطهادهم.

والتاريخ الماضي والحاضر خير شاهد على ذلك، وقد حكى القرآن الكريم شطراً من قصص الأنبياء الماضين، ما يكفي عبرة ودلالة على ذلك.

ثانياً ـ صناعة الإنسان القويم:

قال تعالىٰ: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثمّ رَدَدناهُ أسفل سافلين * إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرُ غير ممنون * فما يكذِّبك بعدُ بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين﴾[1].

إختار الله تعالى الإنسان، من بين سائر مخلوقاته، ليكون أعزّهم وأكرمهم عنده، فأحكم خلقه وأتقن ـ جلّ وعلا ـ صنعه، في أبهىٰ صورة و«أحسن تقويم»، وميّزه بالعقل، وأكرمه بالعلم، وعرّفه النجدين: طريقي الخير والشرّ، ليكون الإنتخاب بيده ﴿إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾[2].

إنّ الإنسان أمام طريقي التكامل والتسافل:

١ ـ أن يعتزّ بالشرف الرفيع الذي خصّه الله تعالىٰ به، ليكون خليفته في الأرض، يُعمِّرها بطاعة الله وخدمة خلقه، بالإيمان

---

١ ـ التين/ ٤ ـ ٨.

٢ ـ الإنسان/ ٣.

والعمل الصالح.

٢ ـ أن يتنزّل من مرتبته الإنسانية السامية إلى المستوى الحيواني، الذي يعيش بغرائزه وشهواته فقط، دون أن يكون له هدف سامٍ، أو مقاصد عالية.

وتلك هي بإختصار: رسالة الدين العظيمة ومقاصده الشريفة، لا غير، والتي بدونها تصبح حياة الإنسان لهواً وسهواً، وأهدافه لغواً، وحياته شقاءً وبؤساً، وضجراً ومللاً.. فما معنىٰ أن يصبح الإنسان يومه ويمسي، ويكد في حياته ويكدح، ويضحك ويبكي، وبكلمة: يحيا ويموت، دون أن يكون لهذا كلّه معنى واتجاه ومقصد.

ومن هنا يختار كثير ممّن لايؤمنون، وبالرغم من توفر كل سبل الراحة وأسباب الحياة وفرص المتعة لهم.. يختارون الموت وينتحرون لأن حياتهم لاتزيدهم فخراً وعزّاً وكرامة ولا تحمل لهم معنىً.

إلّا إنّ هذا الإنسان، كما يحمل معه مستلزمات النهوض والصعود والترقي في طريق الكمال نحو الله تعالىٰ، فإنّه كذلك يحمل معه الإستعداد للهبوط والضعف والسقوط، فكان لابدّ من تذكيره بنقاط ضعفه وقوّته، ليكون نبهاً واعياً عارفاً بنفسه مصلحاً لها، «فمن عرف نفسه عرف ربّه».

وهكذا نجد عشرات الآيات الكريمة، التي تهتم بتوعية الإنسان

بنفسه وتربية ملكات الكمال عنده، وهي تتوجّه في الكثير منها بالخطاب إلى (الإنسان) بإسمه ورسمه، بصفاته وسماته، دون غيره، والتي تُبيِّن له مسيرته، من يوم ﴿لَم يَكُ شَيئاً﴾[1] إلى يوم لقائه بربّه ﴿يا أيُّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فمُلاقيه﴾[2].

وكذلك ما يمر به الإنسان بين هذه المرحلة وتلك، من الخلق والتكوين والعلم والتكليف، وما يعتريه من نقاط ضعف وأعراض مرض، وحالات جهل وطغيان، وجحود وكفران، والتي نجدها بمراجعة الآيات التي حملت كلمة (الإنسان) في المعجم المفهرس للقرآن، أو التي لم تصرح بذلك ولكنّها عنته بالخطاب وقصدته بالبيان، وهدفها جميعاً تقويم الإنسان في فكره لكي يستقيم في سلوكه.

وكانت خلاصة الدروس في سورة العصر في بيان وجيز لنجاح المسيرة البشرية، أو خذلانها، إذ يقول تعالىٰ: ﴿وَالعَصْرِ * إنّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ * إلّا الّذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ وتَواصَوا بِالحَقِّ وتَوَاصَوا بِالصَّبرِ﴾.

ثالثاً ـ الإستواء في الشخصيّة:

من أهمّ المخاطر التي تُهدِّد الشخصية الإنسانية، هي الإنحرافات النفسيّة التي تخرجها عن التوازن والإستواء إلى

---

١ ـ مريم/ ٦٧.

٢ ـ الإنشقاق/ ٦.

التـمايل والتـطرُّف المـرضي، بـحيث تـختل المـوازيـن النـفسيّة الداخـلية للإنسـان، فـلا يـعد يـنظر ويـتعامل مـع الأشـياء بـروح مستقرة ونفس سليمة ونظرة متوازنة صحيحة.

إنّه الإنسان الذي ﴿خُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفاً﴾[1]؛ ولكنّه ﴿كانَ الإنسانُ عَجُولاً﴾[2]، وكان ﴿أكثَرَ شَيءٍ جَدَلاً﴾[3]، وكذلك ﴿هَـلُوعاً * إذا مَسَّـهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وإذا مَسَّهُ الخَيرُ مَنُوعاً﴾[4].

إنّ هذا الإنسـان ﴿ليطغىٰ أنْ رآه استغنىٰ﴾[5]، إنّه ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[6].

إنّ هذه الصـفات التـي يـحملها الإنسـان بـالقوّة، بـين جـنبيه، سرعان ما تنمو وتظهر بمجرّد أن يتمكّن الإنسان من مالٍ أو فتوّة أو قوّة، لينسىٰ أنّ ما عنده من الله، القوي العزيز، الذي كما أعطاه، يـمكن أن يسـلبه كـل شـيء ويـحرمه مـنه، والذي بـيده مـلكوت السماوات والأرض، وبيده روحه وحياته ومماته، وأنّ ما أعطاه، أعطاه ليستفيد منه في طريق الخير، لاالشـرّ، وليكـون شـاكـراً لله تعالىٰ، عابداً له، مفيداً لعباده ومعمِّراً لبلاده.

وهذه الحـالات، وغيرها ممّا حذّر منها القرآن كـثيراً، يـمكن أن

---

١ ـ النِّساء/ ٢٨.

٢ ـ الإسراء/ ١١.

٣ ـ الكهف/ ٥٤.

٤ ـ المعارج/ ١٩ ـ ٢١.

٥ ـ العلق/ ٦.

٦ ـ إبراهيم/ ٣٤.

تعرض لكل فرد وفي أيّة لحظة، لذا تكرّر في القرآن التحذير منها، كلّما سنحت فرصة، وفي سائر مجالات الحياة، ومن ثمّ يُذكّر القرآن بحال الإنسان وواقعه ودوره في الحياة وحاجته إلى ربّهِ وعودته إليه، لكي يحافظ دوماً على اتجاه المؤشّر الصحيح في حياته، فلا ينحرف ولا يميل، ولا يبطر ولا يستكبر.

وكل ذلك يتم من خلال حفظ التوازن الداخلي في العقل والقلب، لتكون نظرة الإنسان إلى الأُمور سليمة وحالته النفسية مستوية ومستقرة.

ونجد في وصايا لقمان لإبنه، والتي يُسجّلها القرآن الكريم لنا، تأكيداً كبيراً على حفظ توازن النفس واستوائها، وذلك لأن نفس الإنسان هي مرآته التي ينظر بها إلى العالم ويتعامل من خلالها مع الأشياء، فإذا مالت مال، وإذا انحرفت انحرف، فنقرأ معاً في وصايا لقمان الحكيم لولده: ﴿وإذْ قالَ لُقمانُ لِابنِهِ وهوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ بِاللهِ إنّ الشِّرْكَ لَظُلمٌ عَظيمٌ * ... وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنّاسِ ولا تَمْشِ في الأرضِ مَرَحاً إنّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُختالٍ فَخورٍ * وَٱقصِدْ في مَشْيِكَ وٱغْضُضْ مِن صَوتِكَ إنّ أَنكَرَ الأصواتِ لَصَوتُ الحَمِيرِ﴾[1].

إنّ لقمان ينتقل من المفهوم إلى المصداق، ليصوّر لإبنه ـ ولنا جميعاً ـ مظاهر الإنحراف والطغيان النفسي، الذي يتجلّى في صورة الأنا المَرَضية، المتخمة بحبّ النفس إلى حدّ التبختر

---

١ ـ لقمان/ ١٣، ١٨ ـ ١٩.

والعُجب والتكبر على الناس.. وينتقل أيضاً إلى الصورة المتوازنة والسلوك السوي المتمثل بالتواضع والسير المعتدل، والتحدّث مع الناس بصوت مقبول، لا بصوت عال ينم عن عقدة واستكبار.

وكل ذلك يتم إذا عاين الإنسان نفسه وراقبها كلّما خطا خطوة في حياته، فكلّما وجد ميلاً أقامه، وكلّما أحسّ بعرض مرض بادر إلى علاجه، سواء بتطهير قلبه، أو تعديل فكره، أو تقويم سلوكه.

رابعاً ـ الإعتدال:

إذا كان الإستواء مفروض في ذات الإنسان ونفسيّته، فإنّ الإعتدال مطلوب في سلوك الإنسان وتعامله مع نفسه، وكل شيء من حوله.

ويبدو أنّ الغلو والتطرُّف من العوارض البشرية الملازمة لمسيرة الإنسان، فهو إمّا أن يهمل ويسرح ويمرح دون قيد أو شرط أو يزيد عن القصد ويخرج عن الإعتدال غلواً وتشدداً في مظاهر سلوكه ومقاصد غاياته، إلّا القليل ممّن رحم الله وهدىٰ.

وأبرز صور التطرُّف نجدها في منهج التعامل مع الدين والدنيا معاً، فمنهم مَن تشغله ملاهي الدنيا ومباهجها وأعمالها وأموالها، لينصرف بكلّه إلى طلب الدنيا وملذّاتها.. ومنهم مَن يلتزم بالدعوة أو العمل، العزوف عن الدنيا، والكسل عن الإستزادة من عطائها وقوتها، فمنهم مَن يعتزل ويتفرّغ للعبادة، ومنهم مَن يعيش على حافة المجتمع دون دور فاعل في الحياة اليومية المباشرة.

وتفرّد الإسلام بإمتياز، بين سائر الدعوات والتوجهات الدينية السائدة إلى إقامة منهج معتدل متوازن، يجمع بين الحياة السعيدة في الدنيا وطلب السعادة الأبدية في الآخرة.

لنقرأ معاً دعاء المؤمنين كما في القرآن: ﴿ربّنا آتِنا في الدُّنيا حَسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار﴾[1].

وزيادة في التأكيد، يُذكِّرُ اللهُ تعالى الإنسانَ المؤمنَ بأن لاينسىٰ حياته الحاضرة وحقّه في التنعُّم بها، كما هو في طريق الآخرة، فيقول: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا...﴾[2].

ولا يقتصر الأمر على طلب الحاجات الأساسية للإنسان، من طعام ودواء ولباس ومسكن، بل يمتدّ ليشمل ما جعله الله تعالىٰ زينة ورزقاً حلالاً، من نعم الدنيا المختلفة، إلّا ما حرّم الله، ممّا يضرّ بسلامة الإنسان وسلامة مجتمعه، فيقول تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الّتي أخرَجَ لِعِبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ قُل هيَ لِلّذينَ آمَنوا في الحَياةِ الدُّنيا خالِصَةً يَومَ القِيامَةِ كذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقومٍ يَعلَمونَ * قُلْ إنّما حَرَّمَ رَبِّي الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وما بَطَنَ والإثمَ والبَغْيَ بِغَيرِ الحَقِّ وأن تُشْرِكوا بِاللهِ ما لَم يُنَزِّلْ بِهِ سُلطاناً وأنْ تَقُولوا على اللهِ

١ـ البقرة/ ١ـ٢.

٢ـ القصص/ ٧٧.

ما لا تَعلَمونَ ﴾[1].

ولأن ظاهرة الرهبنة والتصوّف والإعتزال عن الدنيا، كانت من صفة المتدينين، قبل الإسلام، واستمرّت بعده، فإنّ القرآن الكريم يتوجّه بالنقد إلى هذه الحالة غير الطبيعية، رغم جذورها الدينية، أو دوافعها المخلصة أحياناً، لأنّها بدعة لم يأت بها الله، وهو خالق البشر، ويعلم ما ينفعهم ويضرّهم، ولم يشرع لهم تشريعاً منافياً لفطرتهم وبشريّتهم، فيقول تعالىٰ: ﴿ورَهبانِيَّةً ٱبتَدَعوها ما كَتَبناها عَلَيهِم إلّا ٱبتِغاءَ رِضوَانِ اللهِ فَما رَعَوها حَقَّ رِعايَتِها... ﴾[2].

فلا رهبانية في الإسلام، وهذا محمّد رسول الله(ص) يرىٰ أناساً قد اعتكفوا في الجبال واعتزلوا الناس واجتنبوا النِّساء، وتفرّغوا للعبادة، فينهاهم عن ذلك، ويقول: «أنا أُصلِّي وأنام، وأصوم وأفطر، وآتي النِّساء...».

وعنه(ص): «إنّ الله لم يبعثني بالرهبانيّة، إنّ خير الدين عند الله الحنيفية السمحة»[3].

إنّ المطلوب من المسلم أن يعيش حياته بما فيها من جد ونشاط وطلب علم وعمل، ورفاه وسعادة، ومرح وفرح، وبناء وعمارة.. وكل ذلك عن طريق الحلال والكسب المشروع والعمل الصالح

---

١ ـ الأعراف/ ٣٢ ـ ٣٣.

٢ ـ الحديد/ ٢٧.

٣ ـ كنز العمال: ج٣/ ص٤٩.

واجتناب السيِّئ من القول والفعل، فإنّ الله تعالىٰ أحلَّ الطَّيِّبات وحَرَّمَ الخبائث، ليعيش الإنسان انسجاماً رائعاً مع فطرته ونفسه في حبّها للخير وكرهها للشرّ وما يجلب له الضرر.

خامساً ـ الوسطيّة والإتزان:

قال تعالىٰ: ﴿وكذلك جعلناكم أُمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[1].

الله تعالىٰ: هو الرَّحمٰن الرَّحيم، وهكذا جاءت كل الأديان الإلهٰيّة الحقّ لتشيع السلام والأمن في الأرض، وليحكم السلوك البشري طابع المحبة والرحمة.

ولكن البشر، منذ أن خلقوا وحتى يومنا الحاضر ليسوا سواء، وإذا كانوا كذلك، لم يكونوا بشراً، بل كانوا ملائكة لايُعرَفُ للشرّ معنىٰ، ولكانت الأرض جنّة، وما كانت هناك مظالم ولا حروب، ولا كانت هناك حاجة لسلطات وحكومات ونُظُم وقوانين وقانون عقوبات.

ولم يتغيّر حال البشر منذ وجدوا إلى الأبد، ولذا فإن أي شريعة أو دين، أو قانون، أو مبدأ، لايقوم على أساس الحث إلى فعل الخير من جهة وإلى ردع الشرّ وصدّ أتباعه، من القتلة والظالمين والطغاة

---

١ ـ البقرة/ ١٤٣.

والمتمردين من جهة أخرى، فهو مبدأ ناقص ودعـوة تسـبح فـي الفضـاء.

إنّ مقولة: «إذا صفعتني عـلى خـدي الأيـمن فسأعـطيك خـدّي الأيسر» المنسوبة إلى السيِّد المسـيح، لايـقبلها ولا يـعمل بـها أي مسيحي، أو غير مسيحي، لأنّها تعطي هدية للظالم وتشجِّعه على المضي في ظلمه، في الوقت الذي قامت فيه نظم الدنيا وقـوانـينها على أساس ردع الظالم وصد عدوانه ومعاقبته، ومن المستبعد أن يكون المسيح قد قال ذلك، أو أنّه عنى الذي يفهمه الناس من قوله.

والدين، كل الأديان، والإسلام منها، قام عـلى أسـاس التـوازن والعدل في الصفات، فالرحمة يلهج بها المؤمن المصلّي عدّة مرّات في صلواته، ويطبع بها نفسه وأفعاله، ويرحم نفسه وأهله وعياله وسـائر الناس من حوله، ولكنّه لن يكون رحيماً مع الظـالمين، ولا متساهلاً مـع الطـغاة المـجرمين، لأنّ ذلك ليس بـعدل ولا رحـمة، وإنّما هو مساندة للظلم الذي يعمل على اضطهاد الناس، لا الرحمة بهم، قال الشاعر:

وَوَضْعُ الندىٰ في موضـع السَّيفِ بالعُلىٰ

مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ في مَوضِعِ الندىٰ

وهذا المبدأ يقرّ به كل عـاقل، والديـن شـريعة العـقلاء ومـنهج الحكـماء، فـلا يشـذّ عـن ذلك، والأصـل هـو أن لا عـدوان إلّا عـلى الظالمين.

وهكذا سائر الصفات في شخصية المسلم والتي تبنىٰ على أساس التوازن الذي يحقق العدالة في الشخصية، والمطلوبة في كل مؤمن، بل مَيلٍ إلى جانبٍ وضمورٍ في الجانب الآخر.

فالتواضع أمر مندوب ومحبوب، ولكن لايعني ذلك تعريض النفس للذلّ والإستضعاف، فإنّ «كرامة المؤمن أعزّ عند الله من كرامة الكعبة»، و«لاينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه»، فإذا ما وجد الإنسان مستكبراً يستغل ضعف الناس وتواضعهم، فإنّ «التكبُّر على المتكبِّر عبادة».

وكذلك الإنفاق، فإنّ المؤمن لايكون بخيلاً خسيساً همّه إدخار المال، بل يستفيد منه لخيره وخير أهله ومجتمعه، إذ أنّ «قيمة كل امرئ ما يحسنه»؛ ولكنّه في نفس الوقت لايسرف ولا يُبذِّر، ولا ينفق من دون إعتدال وتدبير، بل كان بين هاتين الحالتين ﴿قَواماً﴾[1] أي وسطاً معتدلاً.

وهكذا تراعىٰ حالة القَوامة = الوَسَطيّة في سائر الصفات، فيحافظ على متانة الشخصية وتماسكها وتعاملها المتزن مع الناس، من دون إفراط في ليونة أو خشونة، ففي الأثر المروي: «لاتكن ليناً فَتُعْصَر، ولا تكن صَلباً فَتُكْسَر».

سادساً ـ الحيويّة والواقعيّة:

---

١ ـ الفرقان/ ٦٧.

تعمل الأديان من أجل إيمان الإنسان بالله تعالىٰ وطاعته وعبادته له، ومن ثمّ إشاعة روح الخير والدعوة إلى العمل الصالح.

ولكنّ للإسلام في حياة المسلم إمتيازاً خاصاً، فالإسلام دين حياة، فهو يتحرّك مع الإنسان في حياته الخاصّة والعامّة ليكون له إشعاعه ونوره الذي يمشي به.

فالإسلام لم يدعُ إلى أن يعتزلَ الإنسان الحياة ويتفرّغ للعبادة والطاعة كما هو مسلك الرهبنة، ولا دعا إلى أن يهجر الإنسان لذّاته أو أن يعاكس غرائزه ورغباته، بل دعا الإنسان إلى طلب الحياة الحسنة في الدنيا والآخرة، والتمتُّع بنعم الله تعالىٰ من الطعام والشراب والجنس والطبيعة، ولكن ضمن الحدود التي حدَّدها الشرع، الذي أحلّ الطيِّبات وحرّم الخبائث.

قال تعالىٰ: ﴿كلوا من طيِّبات ما رزقناكم﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿قل مَن حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيِّبات من الرِّزق﴾[2].

بل رغب الله تعالىٰ في طلب الحياة الكريمة ومستلزمات الرفاه في هذه الدنيا، دون أن يغفل الإنسان عن الحياة الآخرة.

قال تعالىٰ: ﴿ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا

---

١ ـ الأعراف/ ٥٧.

٢ ـ البقرة/ ٦١.

عذاب النار ﴾[1].

وقال على لسان المؤمنين: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ﴾[2].

وبالتالي، فإنّ الإنسان المسلم لايعيش صراعاً داخلياً أو قل أزمة دائمة بين رغباته وشهواته، وبين إيمانه والتزامه الديني، إذ يجد الله تعالىٰ قد أحلّ له الطيّبات وحرّم عليه الخبائث، فهو يجد ما لذّ وطاب ويبتعد عن كل خبيث وسيِّئ، ممّا يبتعد عنه العاقل، حتى ولو لم يكن متديناً، وبالتالي فإنّه يجد في ظلّ الإسلام حياة راقية لَيِّنةً سليمةً محفوفة بالرفاه وحبّ العافية والسلامة.

وبلا شك فإنّ الإلتزام بحدود الله، بحلاله وحرامه، هو في صلب الإسلام وحقيقة الإيمان، فلا إيمان بلا عمل، ولا عبادة بلا طاعة، ولا إسلام بلا إستسلام لأمر الخالق جلّ وعلا، ولا حبّ بلا اتباع لأوامر المجيب والإستجابة لطلباته.

قال تعالىٰ: ﴿قل إن كنتم تحبُّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومَن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾[4].

---

١ ـ البقرة/ ٢٠١.

٢ ـ الأعراف/ ٥٦.

٣ ـ آل عمران/ ٣١.

٤ ـ البقرة/ ٢٢٩.

وقال: ﴿ والعصر * إنّ الإنسان لفي خسر * إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾[1].

ولكن لما كان للدين حدوده والتزاماته، فإنّ هذه بدورها قد تحد من حركة الإنسان وتُضيِّق عليه حياته، فهو كلّما أراد حلاً وجد من الدين أمراً ونهياً، فهذا حرام يجب إجتنابه، وهذا واجب يجب إلتزامه، وبالتالي فقد يكون المسلم مُتحرِّجاً في سلوكه، متثاقلاً في أعماله.

ولكن نظرة كُلِّيّة إلى أوامر الإسلام ونواهيه نجد أنّ تلك الأحكام الإسلامية لاتعيق الحياة الكريمة وتُعسِّرها فحسب، بل هي تُوفِّر للإنسان أُسس الحياة الصالحة وتُسهِّل عليه أُموره وتجلب له سعادة الدنيا والآخرة، بل إنّ في عدم الإلتزام بها تعرّضاً للمخاطر والمساوئ ومقاربة للعلل والأمراض والتعاسة والشقاء.

﴿ومَن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمىٰ * قال ربِّ لِمَ حشرتني أعمىٰ * وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسىٰ ﴾[2].

كما إنّ تلك الأحكام هي ممّا يدعو لها العقل ويوجبها العدل وتستريح لها الضمائر ويستقر عندها الوجدان، وهي أيضاً ممّا

---

١ ـ العصر.

٢ ـ طه/ ١٢٤ـ١٢٦.

وصل إلى ضرورتها الفكر والعلم.

ترىٰ أي عقل واعٍ أو ضمير حي يقبل بالقتل أو السرقة أو الإثم والبغي والفواحش، وهي أُمور شدَّد على حرمتها الإسلام وأغلظَ القول فيها؟

وأي شريعة أو قانون يقبل كتمان الشهادة والكذب، وقول الزُّور والبهتان؟

وحتى بعض المُحرَّمات التي استباحها بعض الناس في زماننا هذا وغيره سهواً أو لهواً.. حتى هذه فقد ذاقوا ويلات فسقهم وفجورهم واتجهوا بعد حين إلى تحديدها وربّما تحريمها لا بهدف ديني وإنّما للآثار الدنيوية السيِّئة التي تركتها على حياتهم.

فكم رُوِّج للإباحة الجنسيّة حتى بات مرض الإيدز يُهدِّد مستقبل البشريّة فعادوا يدعون للإلتزام والإخلاص في العلاقات الجنسيّة بما يشبه التعاليم الدينية في التأكيد على الزواج وحرمة العلاقات خارجه.

وحتى الخمر الذي يتناولونه بشكل واسع، فإنّه عدّ «القاتل الأكبر» لأنّه كان ـ بحسب إحصائيات انكلترا ومعظم الغرب ـ السبب الرئيسي وراء جرائم القتل العائلي وحوادث السير.

وهكذا كانت الواجبات في الإسلام رحمة للإنسان وراحة لباله وسلامة لجسمه، فالصلاة سياحة للرُّوح، والصوم صحّة للبدن، والزكاة تزكية للنفس ومساعدة للناس الآخرين، والنجاة في

الصِّدق، والبركة في خدمة الوالدين وصلة الأرحام.

وكل هذه وتلك ممّا يجعل الحياة لطيفة وذات أهداف عالية متسامية تشعر الإنسان بالمتعة في أيّامه لأنّه يعيش مع نفسه وربّه وفي خدمة مجتمعه، وكل لحظاته ذات قيمة ومعنى وهدف.

فهو سعيد حتى في معاناته وآلامه لأنّه يُقدِّم ويُضحِّي ويتحمّل ويصبر في سبيل الله ومن أجل مرضاته ورضائه.. وهو سائر كادح إلى الله فملاقيه، حيث رحمته وجنّته وحياته الأخرى الخالدة.

والإسلام رغم تأكيده على الإلتزام بحدوده وأحكامه، لم يكن متعسِّفاً ولا متشدِّداً، بل كان سهلاً ومرناً، فالله تعالىٰ يريد الرَّحمة والسعادة للإنسان، ولا يريد به الضيق أو التعاسة، كما قال تعالىٰ: ﴿إنّما يُريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[1].

والأحكام إنّما تكون ملزمة وواجبة حيثما كانت في دائرة الإمكان ولم توقع الإنسان في حرج وضرر لايتحمّل عادة.

قال تعالىٰ: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج ...﴾[2].

وبالتالي، فقد وضع الفقهاء في ضوء ذلك قاعدة فقهيّة، هي عدم التكليف بما لايُطاق.. وقاعدة نفي الحرج.

وخلاصتها أنّ أي حكم لايمكن تطبيقه يسقط وجوب الإلتزام به، وكذا إذا أضرّ بالإنسان ضرراً كبيراً وأوقعه في حرج شديد.

---

١ ـ البقرة/ ١٨٥.

٢ ـ الحج/ ٧٨.

فإذا لم يستطع الصلاة من وقوف صلّىٰ قاعداً وإن لم يستطع صلّىٰ نائماً، ولو باللفظ أو الإشارة، بحسب الإمكان.

وإن أضرّه الصوم سقط وجوبه.

وإن لم يستطع الحج، جسدياً أو لغيره من الأسباب، لم يجب عليه، وهكذا سائر الواجبات.

وإن توقّفت حياته على أكل الميتة أو شرب المحرّم جاز له ذلك.

وتتّسع الدائرة حتى للإحراج الإجتماعي أو السياسي الذي يُسبِّبه له أحياناً الإلتزام بحكم ما في ظروف إجتماعية خاصّة بحيث يُسبِّب له ذلك الإلتزام خطراً أو حرجاً شديداً، فيرتفع بذلك وجوبه[1].

وكل ذلك جعل للإسلام مرونة كبيرة تتحرّك في دائرة حياة الإنسان بحيويّة وواقعيّة لاتتعطّل معها الحياة، بل تزداد رونقاً وجمالاً.

وهذا هو الذي ساعد على انتشار الإسلام في كل أنحاء العالم وجعل من الإلتزام به أمراً ميسوراً في مختلف المجتمعات، حتى تلك التي لاتدين بالإسلام.

نعم، هناك ظواهر سلبيّة عند بعض المسلمين جعلت من الإلتزام الديني أمراً صعباً، ومن المسلم الملتزم إنساناً معقّداً،

---

١ ـ أرجع الفقهاء تشخيص موارد الحرج والضرر إلى المكلّف نفسه، فالإنسان المسلم هو الذي يعيش الحياة وهو الذي يقدّر ضروراتها، وهو أعلم بظروفه وإمكاناته.

وربّما منزوياً عن الحياة، سلبياً تجاه الآخرين.

وذلك يكون عندما يختل التوازن بين الدنيا والآخرة في حياة المسلم، وتتأثّر نظرة المسلم بالأفكار الصوفية المُتطرّفة التي تدعو إلى ذمّ الدنيا وترك ملذّاتها، وجعل طلب الرّزق والتمتُّع بالنعم في الخط المقابل والمضاد للإيمان، كما هو حال الكثير من المواعظ الدينية المتشدِّدة التي تُعنِّف وتُشدِّد وتُؤكِّد على الإلتزام بما هو أكثر من الدين، وكما هو حال علماء اليهود الذين حرّموا ما لم يُحرِّمه الله وأوجبوا ما لم يوجبه (آل عمران/ ٩٣).

وكانت ميزة الإسلام العظيم أنّه جاء ليرفع هذه الأغلال ويُخفِّف تلك الأثقال، كما قال تعالىٰ: ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ... ﴾[١].

إنّ كل ذلك يدفع المؤمن لأحد إتجاهين:

إمّا أن يستجيب لتلك الأفكار فيعتزل الدنيا والناس ويعيش منفرداً منشغلاً بذاته، وفي أحسن الأحوال متفرِّغاً لعباداته.

وإمّا أن يعيش كما خلقه الله تعالىٰ، إنساناً له شهواته ورغباته، ولابدّ له من طلب الرِّزق والأكل والنوم والسفر والتمتُّع بلذّات الحياة.

والنموذج الأوّل لايتوافق مع خلق الإنسان وسنّة الله في الحياة ولا يخلق مجتمعاً دينياً معاصراً ولا يصنع حضارة إسلامية.

---

١ ـ الأعراف/١٥٧.

لنفرض أنّ الناس اعتزلوا الدنيا وتفرّغوا للآخرة وعاشوا رهبانية لم يكتبها الله عليهم، بنص القرآن الكريم (الحديد/ ٢٧)، فَمَن الذي يوفِّر لقمة العيش؟ ومَن الذي يطوّر المجتمع؟ مَن الذي يُطَبِّبُ الناس ويكافح الأمراض؟ ومَن الذي يُعمِّر البلد؟ يُمَهِّدُ شوارعه ويبني السدود ويشق الأنهار ويوفِّر السكن ومتطلِّبات الحياة الكريمة؟

لقد حثّ الإسلام على طلب العلم وأكّد على أهميّة العمل والسعي في الرِّزق بما لانجد فيه مجالاً لكسول أو خامل أو عاطل في مجتمعه، وهذه هي روح الإسلام العظيمة التي أحدثت نهضة كبيرة في فكر المسلمين وقدّمت للعالم حضارة علمية شامخة.

كما إنّ شعور المسلم بالذنب والإثم في معايشته لدنياه، أمر لاينسجم مع تعاليم الإسلام وسيرة رسوله الكريم الذي كان يُصلِّي وينام ويصوم ويفطر ويأكل الطعام ويتزوّج النِّساء ويحبّ العطر ويتزيّن بزينة الله التي أخرج لعباده ويتنعّم بطيِّبات رزقه.

وهكذا يجب أن يكون المسلم، ناشطاً في حياته، كادّاً في طلب رزقه، فاعلاً في محيطه، نافعاً لمجتمعه، لطيفاً في خلقه ومعاشرته، ملتزماً بأوامر ربّه، راجياً لرضاه ورضوانه.

ومع كون المسلم يسعىٰ لكي يلتزم بأحكام الله في كل لحظاته وسكناته، فإنّه يمتلك أيضاً القدرة على التكيُّف والمرونة لمُتطلِّبات الحياة، فيعمل بما هو ممكن بحسب طاقته، ويلتزم بما لايُشكِّل

حرجاً كبيراً له.

فكان بذلك للدين الحضور الدائم في حياته، ولكنه الحضور اللطيف واليسير الذي لا حرج فيه ولا عسر، ليكون الإسلام، كما وصفه الرسول الكريم(ص): «إنّما أتيتكم بالشريعة السَّمحاء».

سابعاً ـ العمل الصالح:

الإيمان، كما ورد تعريفه في الحديث الشريف «قول باللسان وعمل بالأركان»، وفي حديث آخر: «ما وقر في القلب وصدّقه العمل»، لذا فلا يمكن أن يُقبَلَ إيمانٌ لايظهر أثره من سلوك الانسان وتصرّفاته، بل إنّ ثمرة الإيمان هو أن يجتنب الإنسان السيِّئات ويعمل الصالحات، ولا يحتاج ذلك إلى مزيد من الإستدلال، فجملة الآيات القرآنية الكريمة تقرن بين الإيمان والعبادة والعمل الصالح، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالعَصْرِ * إنّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ * إلّا الّذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ...﴾[1].

وهذا المبدأ والمعيار حاكم وسارٍ في سائر الأديان، يقول تعالىٰ: ﴿إنّ الّذينَ آمَنوا والّذين هادُوا والصّابِئونَ والنَّصارىٰ مَن آمَنَ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالِحاً فلا خوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنُونَ﴾[2].

---

١ ـ العصر/ ١ ـ ٣.

٢ ـ المائدة/ ٦٩.

والدين ليس بأماني أو شعارات، أو كما يحلو للبعض أن يجعله ارتباطاً قلبياً وخيطياً بين الإنسان وربّه، دون أن يكون له آثار وتبعات والتزامات في سلوك الإنسان وعمله، بل «الدين المعاملة» كما ورد في الأثر، وليس هو كما يريد البعض أن يجعل منه حبّاً وعلائق قلبية مجرّدة، أو حُبّ الله، أو حُبّ النبيّ، أو حبّ الأولياء، فإنّ هذا صحيح في مبدئه ومنطلقه، ولكنّه لايكون حُبّاً صادقاً وحقيقياً إلّا إذا تبعه الإخلاص والطاعة للمحب، «إنّ المحبّ لمن أحبّ مطيع»، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُم واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وبالتالي، فإنّ معيار إسلام المرء هو التزامه بأمر الله، بحلاله وحرامه، وأخلاقه وسلوكه القويم، لا مجرّد لقلقة لسان، أو قيام وركوع وسجود، وادّعاء وتظاهر بالشكل واللباس، دون أن يكون طابع الإنسان: الصلاح، وعمله: الخير، وصفته: خدمة الخلق، إذ إنّ «خير الناس مَن نفع الناس»، قال تعالىٰ: ﴿لَيسَ البِرَّ أن تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المَشرِقِ والمَغرِبِ ولكِنَّ البِرَّ مَن آمَنَ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ والمَلائِكَةِ والكِتابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى المَالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبىٰ واليَتامىٰ والمَساكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفي الرِّقابِ وأَقامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكاةَ والمُوفُونَ بِعَهدِهِمْ إذا عاهَدوا والصَّابِرِينَ في البَأْساءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الّذينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ

---

١ ـ آل عمران / ٣١.

المُتَّقونَ﴾[1].

ثامناً ـ تحصيل التقوىٰ:

قال تعالىٰ: ﴿إنّا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[2].

لدى الناس معايير كثيرة للتفاضل الإجتماعي والرقي والتقدُّم لبعضهم على البعض الآخر، بعضها مادّية والأخرىٰ إعتبارية.

في المجتمعات المادّية عموماً، والرأسمالية على وجه الخصوص، تكون للمال قيمة عليا، فأصحاب الثروة والأموال الغزيرة يحظون بمزيد من الإحترام والتقدير، حتى لو كانوا لايستحقّون ذلك، كأن تكون الأموال قد اكتسبوها من باطل، أو أنّهم قد ورثوها ولم يبذلوا في تحصيلها جُهداً، فلم يكن لهم فضل في ذلك.

ولكن المجتمع المادّي يعظم هؤلاء ويعطيهم دوراً ونفوذاً أكبر من سائر الناس، حتى أنّهم يتحكّمون في مصير بعض المجتمعات، بشخصياتهم التي تضخّمت بأموالهم وبالإعجاب والشعور بالتبعيّة التي يدين لهم بها بعض الناس، أو بما يبذلون من أموال لشراء آراء الناس، أو التأثير عليها من خلال وسائل

---

١ ـ البقرة/ ١٧٧.

٢ ـ الحجرات/ ١٣.

الإعلام، حتى نجد في أكثر الدول إدِّعاءً للديمقراطية يتقدّم في انتخاباتها أصحاب الشركات ورؤوس الأموال حصراً وبلا منافس.

وفي بعض المجتمعات لازالت معايير النسب والحسب واللون والعنصر والإنتماء القبلي والعشائري تتحكّم فيها، فالأبناء يتفاخرون فيما بينهم بإنتسابهم إلى أجداد -إن صدقت النسبة- لم يروهم، بل قد لايعلمون بحالهم ولا بأفضالهم، إن لم تكن أكثر تلك الفضائل مزعومة أو مبالغ فيها، وبعضها أصلاً ليست بفضيلة.

بعضهم ينتسب إلى أُمم قد خلت، فيهم الأصيل وفيهم الدخيل، ومنهم الظالم ومنهم المقتصد، فلم تخل أُمّة في الأرض من ظالم وآخر عادل، وجاهل وآخر عالم.. وهاهي الأُمم التي لم تكن لها سوابق من الفخر، بل لم يكن لها تاريخ لحداثتها قد برزت وسبقت في ميادين العلم والحضارة، وهاهي أخرىٰ بقيت حبيسة الجهل والفخر المزعوم في آخر سلّم المدنيّة وما لها من عز.

قال تعالىٰ: ﴿تلك أُمّة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ولا تسأل عمّا كانوا يعملون﴾[1].

جاءت سائر الأديان للدعوة إلى الإيمان بالله تعالىٰ وتعبيد الناس له، وكان للإسلام الذي بين أيدينا إمتياز خاص بأنّه ألغىٰ

---

١ ـ البقرة/ ١٣٤.

جميع الفوارق بين الناس، من لون أو عرق أو مظاهر مادّية، إذ «الناس سواسيّة كأسنان المشط ولا فرق لعربي على أعجمي إلّا بالتقوىٰ» كما جاء في الحديث الشريف.

فلا أُمّة مختارة كبني إسرائيل، ولا نبي أبيض يتوهّمونه كالسيِّد المسيح، ولا إمتياز لطبقة معيّنة من القسسة أو الكهنة أو رجال الدين، ولا إعتبار لسلطان أو صاحب مال، إلّا بالتقوىٰ والعمل الصالح والجهاد في سبيل الله.. وكلُّ الناس، غنيّهم وفقيرهم، مأمورهم وأميرهم، أسودهم وأبيضهم، عربيّهم وأعجميّهم، يصطفون صفّاً واحداً في صلاتهم بين يدي الله، ربّهم وربِّ السّماوات والأرض، يدعونه رغباً ورهباً، يرجون رحمته.. تسمو بهم تقواهم، كما تقول الآية الكريمة: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

والتقوىٰ، ويعنىٰ بها تقوى الله، هي خشيته والخوف من عقابه، برعاية حدوده، من حلاله وحرامه، وتجنُّب الظلم والمنكر والبغي.. هذه التقوىٰ نجدها في آيات كثيرة مبثوثة في معظم سور القرآن، بل كانت هي فحوىٰ سائر الرِّسالات الإلٰهيّة، قال تعالىٰ: ﴿ولقد وصّينا الذين أتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أن اتّقوا الله ...﴾[1].

---

١ ـ النِّساء/ ١٣١.

ووصّىٰ به الله تعالىٰ نبيّه: ﴿يا أيُّها النبي اتّق الله﴾[1].

كما شدّد بها على المؤمنين: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[2].

ولكن قد يُقال بأن هذه التقوىٰ صفة معنوية شخصية، وبالتالي لايمكن تطبيق معياريتها على الناس، فالقرآن الكريم ينهىٰ عن التفاضل على الآخرين بإدِّعاء التزكية والتقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقىٰ ...﴾[3]، فالله تعالىٰ هو أعلم بما في قلوب الناس ومَن يخشاه بالغيب ومَن يتظاهر بالإيمان رياءً، ولذلك يبرز أثر التقوىٰ يوم القيامة، إذ تكون ﴿العاقبة للمتقين﴾[4]، و﴿الذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة﴾[5].

والإشكال بهذا المقدار صحيح، فلا يمكن لشخص أن يتعالىٰ على الآخرين بعنوان أنّه أتقىٰ، أو أن يحط من شأن غيره لأنّه أقلّ تقوىٰ، خصوصاً مع وجود تأكيدات كثيرة في الأحاديث والروايات على أنّ المؤمن يتّهم نفسه ويُزكِّي غيره، وأنّه يرى الآخرين خيراً منه، وكل ذلك يزيد من ورعه وتقواه وإيمانه، كما

---

١ ـ الأحزاب/ ١.

٢ ـ التوبة/ ١٢٠.

٣ ـ النجم/ ٣٢.

٤ ـ الأعراف/ ١٢٨.

٥ ـ البقرة/ ٢١٢.

ورد في الأثر عن الإمام السجاد علي بن الحسين زين العابدين: «أكثر الناس إيماناً أعذرهم للناس»، فربّما كان شخصاً بسيطاً في نظرنا وهو يمتلك مكانة عظيمة عند الله لورع لانراه وأعمال صالحة لانعلمها.

ولكن التأكيد في الآيات القرآنية الكثيرة على مفهوم التقوىٰ وتركيزه في نفس الإنسان المؤمن قد يأتي لجهتين:

الأُولىٰ: أن يكون هذا المعيار شاخصاً داخل نفس الإنسان، ليستحضر تقوى الله تعالىٰ ليل نهار ويعمل على أساس من هذه التقوىٰ، مع نفسه والآخرين، فيعبد الله تعالىٰ حبّاً به ﴿والذين آمنوا أشدُّ حُبّاً لله...﴾[1]، ويُطيعُ ربّه طمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه، فيراعي حقوق الله وحقوق الناس وتكون تلك التقوىٰ قوّة مُحرِّكة لاتسكن لدفعه نحو الخير والعمل الصالح واجتناب الإثم والعدوان.

الأمر الآخر: أنّ مفهوم التقوىٰ لم يطرح في القرآن الكريم كمفهوم نفسي مجرّد لايتعلّق بالعمل وليس له ملزومات ونتائج، بل إنّ القرآن جعل لهذه التقوىٰ تجلّيات تعمّ السلوك الإنساني تجاه دنياه وآخرته.. تجاه ربّه ونفسه وسائر الناس، فكانت التقوىٰ سياجاً يحرس الإنسان عن اتّباع الشرّ والشيطان وساحة للبر

---

١ ـ البقرة/ ١٦٥.

والعمل الصالح وطاعة الرَّحمٰن، وهكذا كان للتقوىٰ تعاريف واضحة في ذهن الإنسان المسلم وكان للمتّقين معالم وصفات مميّزة.

يقول تعالىٰ: ﴿ألٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه * هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربّهم وأولئك هم المفلحون﴾[1].

وهكذا تجد في هذا التوصيف البليغ والموجز للمتّقين وجهين يمتزجان في شخصيّة واحدة، وجه علوي إيماني بالله تعالىٰ والصلاة له، فهي تقوىٰ توصل الإنسان بربّه وتُعمّق تلك الصلة بالطاعات والعبادات، ووجه آخر سلوكي تنعكس فيه هذه التقوىٰ على عمل الإنسان ليكون إيمانه صدقاً وتقواه حقّاً، لا مدّعىً ﴿وممّا رزقناهم يُنفقون﴾.

وفي آيات أخرىٰ نجد تفصيلاً لهذه الصور التي تتجلّىٰ في مصاديق كثيرة من سلوك الإنسان العبادي واليومي، حتى تكاد تكون التقوىٰ مُتجسِّدة في نماذج سلوكية يلمسها الناس عن قُرب، كقوله تعالىٰ: ﴿ليس البر أن تولُّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرَّ مَن آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنَّبيِّينَ

---

١ ـ البقرة/ ١ ـ٦.

وآتى المال على حُبِّه ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرِّقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضَّرَّا وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[1].

والعلاقة بين التقوى الذاتيّة وتجلِّيها في البر، علاقة أساسيّة متقابلة، إذ يجب أن يكون البر بدافع التقوىٰ، حتى يكون خالصاً لله تعالىٰ لاتشوبه شائبةٌ من رياء أو غيره، إذ إنّه: ﴿ولكنَّ البرَّ مَن اتقىٰ ﴾[2].

وفي نفس الوقت، فإنّ التقوىٰ لاتكون حقيقيّة إلّا إذا عبّرت عن نفسها في إيمان وورع صادق داخل النفس الإنسانية يدفعها إلى خشية الله واستذكاره من جهة، وعمل سائر أعمال البر والخير في المجتمع من إنفاق وكظم للغيظ وعفو عن الناس وسائر وجوه الإحسان (البقرة/ ١٣٣) حتى تكاد تكون صفتا التقوىٰ والإحسان متلازمتين كأنّهما وجهان لعملة واحدة، لايمكن التفريق بينهما: ﴿إنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون ﴾[3].

ويشتدُّ التلازم بين التقوى والبرّ حتى يردا مقترنين في قوله تعالىٰ: ﴿ وتعاونوا على البرّ والتقوىٰ ولا تعاونوا على الإثم

١ـ البقرة/ ١٧٧.

٢ـ البقرة/ ١٨٩.

٣ـ النحل/ ١٢٨.

والعدوان ﴾[1].

ووجه التقوى المتين والحاد في سلوك الإنسان هو التزام العدالة مع نفسه والآخرين، فالظلم هو أكبر خرق للتقوىٰ، سواء كان الظلم معنوياً، كإهانة الناس أو السخريّة منهم أو التعدِّي القولي عليهم، أو ذكرهم بسوء أو الحط من قدرهم، أو تضييع حقوقهم السياسية والإجتماعية، أو كان ظلماً ماديّاً ملموساً كأخذ أموالهم بالباطل أو التعدِّي عليهم بضرب أو سجن أو قتل أو تشريد... إلخ.

قال تعالىٰ: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ إنّ الله خبير بما تعملون ﴾[2].

فالعدالة مطلوبة حتى مع الخصوم والأعداء، فكيف مع الناس العاديين ممّن لا حول لهم ولا قوّة، من شعوب العالم المقهورة على أمرها.

ويمتد تأثير التقوىٰ إلى الشأن الإجتماعي، سواء على صعيد التزام النظم ورعاية القوانين والشؤون العامّة التي أرسيت لرعاية حقوق الناس وتنظيم حياتهم اليوميّة بما يكفل راحتهم وسلامتهم، فكان الإلتزام بذلك جزءاً من التقوىٰ.

---

١ ـ المائدة/ ٣.

٢ ـ المائدة/ ٩.

قال تعالىٰ: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ مَن اتقىٰ... ﴾[1].

أو على صعيد العلاقات الإجتماعية التي يجب أن تحضر فيها التقوىٰ حتى يكون الإنسان صالحاً في نفسه مُصلحاً لغيره ومجتمعه، بعيداً عن الأنانية وسوء السريرة والخبث والمكيدة، فيقول تعالىٰ: ﴿فاتّقوا الله واصلحوا ذات بينكم﴾[2].

ومن ذلك أيضاً الوفاء بالعهود والمواثيق، قال تعالىٰ: ﴿... بلىٰ مَن أوفىٰ بعهده واتقى فإنّ الله يحب المتقين﴾[3].

ومن ثمّ فإنّ من أبرز معالم التقوى تكون في مواضع الدفاع عن الدين ونصرة المسلمين حيث يتحمّل المسلم الصعاب إيماناً وثباتاً على دينه ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تفلحون﴾[4].

كيف نستحصل التقوىٰ ونستحضرها؟

قال تعالىٰ: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوىٰ واتقونِ يا أولي

١ـ البقرة/ ١٨٩.

٢ـ الأنفال/ ١.

٣ـ آل عمران/ ٧٦.

٤ـ آل عمران/ ٢٠٠.

الألباب ﴾[1].

لعظم أهميّة التقوىٰ في تكوين شخصيّة المسلم كحجر أساس تبنىٰ عليه سائر تصرُّفاته ومواقفه، جاء الأمر الإلٰهي بالتزوُّد بالتقوىٰ كخير زاد يستفيد منه المسلم في طريقه إلى الله والدار الآخرة.

ولكن يبقى السؤال الأهم هو كيف يمكننا تحصيل التقوىٰ وجعلها حاضرة في البيت والمجتمع، وكيف يمكن أن نجعلها ركناً أساسياً في منهج التربية الدينية لأبنائنا؟

والواقع أنّ الإجابة على هذا السؤال نوعاً ما معقّدة لأنّها بسيطة من وجه وصعبة من وجه آخر، إذ إنّ التقوىٰ هي جزء من الإيمان بالغيب وهي أمر نفساني يحتاج إيجادها إلى تربية وتنمية للإيمان بحيث يكون الإيمان فيها حاضراً والوجدان يقظاً مع الإستمرار على ذكر الله على أيّ حال، لا بالقول فحسب، بل الأهم ذكره بالقلب وتصديق ذلك بالجوارح والأعمال.

وذلك أنّ الإيمان أمر فطري مغروس في ذات الإنسان، والتقوىٰ كذلك تكون حاضرة بهداية الله له ﴿إنّا هديناه النجدين إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾، ولكن الإيمان ينقص ويزيد، كما إنّ الفطرة قد تضعف ويقوىٰ عندها نوازع الشرّ، فلابدّ إذن من تدبير.

تحدّث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن الأسباب المولِّدة

١ـ البقرة/ ١٩٧.

للتقوىٰ، والعلل الموجدة لها، فكان قسم من الآيات يؤكِّد على أهميّة الوحي الإلٰهي ـالقرآن ـفي إيجاد الدوافع نحو ذكر الله وتقواه.. ذلك أنّ القرآن الكريم بما يحمل من آيات بيّنات تُرسِّخ في النفس دعائم الإيمان وتُذكِّر الإنسان بمبتدئه ومبتغاه.. بخالقه الذي أوجده ومن ثمّ ربّاه ورعاه وإليه رجعته ومنتهاه، ومن ثمّ بيان آيات الله في آفاق الوجود وفي الأنفس والتذكير بنعمه التي لاتحصىٰ ودلائله التي لاتخفىٰ والتأكيد على أنّ طريق الفلاح في طاعته والإلتزام بشريعته، إذ الدنيا مزرعة الآخرة والآخرة هي دار البقاء والخلود التي يجب أن يعمل الإنسان لها، إذ فيها الحساب والثواب والعقاب الذي يتعرّض له الإنسان إن خالف ربّه واتّبع هواه.. كل ذلك التذكير الدائم يوجد في الإنسان حالة متوثّبة من التقوىٰ تدفعه لخشية الله والعمل لأُخراه.

فمراحل تحصيل التقوىٰ إذن هي:

١ ـ المعرفة لحقائق الكون والعلاقة مع الله تعالىٰ، ودور الإنسان في هذه الحياة الدنيا وعودته إلى الدار الآخرة.

وهي حقائق زخر بها القرآن الكريم هدىً وموعظة وبياناً وتذكرة، قال تعالىٰ: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلِّ مثلٍ لعلّهم يتذكّرون * قرآناً عربياً غير ذوي عوجٍ لعلّهم يتّقون﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا ما فيه لعلّكم

---

١ ـ الزُّمر/ ٢٧ ـ ٢٨.

تتقون ﴾[1].

فمعرفة الطريق: أوّله ووسطه وآخره وطبيعة المنعرجات والصعوبات فيه، تعين السائق على السير بوعي للوصول إلى آخره بسلامة وسلاسة.

ومعرفة عواقب الأُمور: عواقب الآثام من الأمراض والأسقام التي تُخلِّفها والأضرار التي تلحقها بروح الإنسان وسلامته وصحّته الجسديّة والنفسيّة فضلاً عن حساب الله وعقابه.. كل ذلك يُوفِّر للإنسان جوّاً يعصمه عن الوقوع في الذنب لأنّه سوف لاينخدع بالوجه الممشوق والمزيّن لعمل السُّوء.. سواء كان فاحشة أو غيره وإنّما سوف يرىٰ حقيقة الوجه القبيح للذنب والنيّة السيِّئة للشيطان وتبعات ذلك الذنب فيمتنع عنه.

نقرأ في قصة النبي يوسف(ع) كيف أنّه تهيّأت له كل أسباب الوقوع في الزِّنا، وهو فتىً في أوج الشباب وقوّته، ولكنه يعصم نفسه عن الذنب عندما يرىٰ برهان ربّه.. بما أتاه من علم وبصيرة وإيمان قد تسقط كل الإغواءات وينتصر يوسف على الشيطان ولا يقع في المعصية.

يقول تعالىٰ: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلَّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنّه ربِّي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظالمون * ولقد همَّت به وهمَّ بها لولا أن رأىٰ برهان ربِّه

---

١ ـ الأعراف/ ١٧١.

كذلك لنصرف عنه السُّوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين ﴾[1].

وممّا يساعد على التقوىٰ والإلتزام بها هو معرفة حدود الله وأحكامه كما بيّنّاها في كتابه وفصلتها سنّة نبيّه.

قال تعالىٰ بعد بيان مجموعة من الأحكام الشرعيّة: ﴿... تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يُبيِّن الله آياته للناس لعلّهم يتقون ﴾[2].

٢ ـ الطاعة والعبادة، فكلّما كثرت طاعة الإنسان لربّه وازدادت عبادته، كلّما قويت التقوىٰ في نفسه وعصمته عن الوقوع في الأخطاء، لأنّ العبادة صلاةً وصياماً وحجّاً و... تُوفِّر للإنسان جوّاً إيمانياً وحضوراً دائماً لذكر الله في نفسه.

قال تعالىٰ: ﴿يا أيُّها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتّقون ﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿إنّ الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾[4].

وقد يكون لبعض العبادات تأثيرٌ خاصٌ في تقوية ملكة التقوىٰ لأنّها تؤكّد خلوص العبادة مع عزم الإرادة على الطاعة، كالصوم الذي يكون حصناً للإنسان، خصوصاً الشاب، عن التأثُّر بضغط

---

١ ـ يوسف/ ٢٣ ـ ٢٤.

٢ ـ البقرة/ ١٨٧.

٣ ـ البقرة/ ٢١.

٤ ـ العنكبوت/ ٤٥.

الشهوات.

قال تعالىٰ: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كُتِب عليكم الصِّيام كما كُتِب على الذين من قبلكم لعلّكم تتقون﴾[1].

٣ ـ العمل بعموم الأوامر الإلٰهيّة والإرشادات الدينيّة، فإنّ التقوىٰ تبعث على العمل، والعمل بدوره يزيد التقوىٰ ويرسخ وجوده في النفس، فكلّما اقترب الإنسان من ربّه خطوة قرّبه الله تعالىٰ منه أضعاف ذلك.

مثل ذلك كمن يبحث عن طريق يوصله إلى غاية معيّنة، فإنّ بحثه عن الطريق يوصله إليه، ووصوله إلى الطريق يُسهِّل مهمّته ويُقرِّبه من هدفه، وكلّما قطع مسافة منه كان أكثر تصميماً على بلوغ مراده وأقرب مكاناً لمبتغاه.

وهكذا فإنّ العمل بكل واحدةٍ من الوصايا الدينيّة يثبت ركناً من تقواه، حتى إذا تكامل العمل بسائر الوصايا تكاملت لوحة التقوىٰ في نفسه وعصمته عن الذنوب والأخطاء.

قال تعالىٰ: ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ألّا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلّا بالحقِّ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدَّه وأوفوا الكيل والميزان

---

١ ـ البقرة/ ١٨٣.

بالقسط لا نكلّف نفساً إلّا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربىٰ وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلّكم تذكّرون * وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتقون ﴾[1].

أمّا كيف يُربِّي الوالد أبناءه على التقوى، فيكون ذلك أوّلاً بأن يستحضر الوالد تقوى الله في سلوكه في البيت والمجتمع فيبدأ بنفسه وليستشعر أولاده خشيته من الله ورعايته للحقوق وعدالته في سلوكه، ابتداءً مع أهله وولده، ومن ثمّ سائر الناس.. وبعد ذلك يعمل على تنفيذ ما ذكر من خطوات بالإشتراك مع أهله وأسرته التي تعمل بهذا الإتجاه، وسيكون بذلك سلوكه مؤثراً فيهم من جهة أنّهم يلمسون بركة ورحمة التقوىٰ وآثارها على أُسرتهم ومن ثمّ يجدون الحق والصدق في قول الوالد وفعله فيستجيبون لطلبه ويلبُّون دعوته وتوصيته لهم بالحق والصبر والعمل الصالح.

قال تعالىٰ: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[2].

ويجب أن يعمل الوالدان لكي يكون معيار التقوىٰ حاضراً وفاعلاً في حياة أبنائهم يُشجِّعونهم على الطاعة والعبادة

١ـ الأنعام/ ١٥١ـ١٥٣.

٢ـ التحريم/ ٦.

ويشعرونهم بالرِّضا عند العمل الصالح وبالسخط عند العمل السيِّئ، فلا يمنع ذلك من مكافأتهم أحياناً عند فعلهم الصواب، ومعاتبتهم ومعاقبتهم عند خطئهم، بحسب مستوى العمل، مع التركيز على أن يعمل الأولاد لربّهم حُبّاً له وطمعاً في رضاه ورضوانه وخشية من سخطه وعقابه.

تاسعاً ـ التوازن بين المادّة والرُّوح:

تتّجه بعض أنماط التربية الدينية إلى التركيز على الجانب الرُّوحي والأخلاقي دون غيره، بل قد تفرط في ذلك فتدفع الإنسان إلى ترك الدنيا وإعتزال لذّاتها والتفرُّغ للعبادة والتأمُّل الروحي، بعيداً عن المغريات المادّية.

وقد يصل ذلك إلى درجة «الرهبنة» والتي يفارق فيها الإنسان بعض غرائزه الطبيعيّة كالميل الجنسي فلا يتزوّج، متفرِّغاً للدين والعبادة وأداء الطقوس، ويعد ذلك قمّة الطاعة وأعلىٰ درجات العبادة والخضوع لله تعالىٰ.

أمّا «الإسلام»، فإنّه لايلغي أهميّة الحياة الدنيا للإنسان ولا يطلب منه أن يترك حاجاته وغرائزه الطبيعيّة، وإنّما يدعوه إلى التمتُّع بها من الحلال والطيِّبات، وترك الحرام والخبائث منها، ولا يُحبِّذ حالة «الرهبنة» ولا يدعو لها، لأنّ الله تعالىٰ هو الذي خلق الإنسان وخلق له غرائزه، التي لاتستقيم الحياة إلّا بها.

فلو فرضنا أنّ الناس جميعاً ترهبنوا وتركوا الزواج، فإنّ الحياة

ستتوقّف بعد حين، لعدم الإنجاب وإنقطاع النسل.. فلابدّ إذن من الغريزة الجنسيّة.. ولكن يكون الإستمتاع بها من خلال الزواج الذي يحفظ النسل ويحفظ الحياة العائلية، لا الزنى الذي يخلط المياه ويضيع الأنساب ويُهدِّد المجتمع بالتفكُّك والأمراض النفسيّة والجسديّة.

لذا ورد في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿... ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلّا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها...﴾[1].

وإذ يكون الرسول الكريم محمّد(ص) هو الأُسوة وهو المقتدىٰ للمسلمين والمثال الذي يحذون حذوه، فإنّ الرسول كان يعيش الحياة البشريّة العادية، فيأكل الطعام ويلبس الثياب ويتزوّج النِّساء، في نفس الوقت الذي كان يُصلِّي ويصوم ويعبد الله تعالىٰ، وهو يقول: «إنِّي لأصوم وأفطر وأُصلِّي وأنام وأتزوّج النِّساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منِّي»[2].

وعلى الرغم من ورود آيات كثيرة في التحذير من الإغترار بالدنيا وجعلها هدفاً نهائياً للإنسان، فينشغل بملذّاتها ويكثر من ثرواتها دون أن يتذكّر الهدف من خلقه وما وراءه من يوم الحساب والحياة الأُخرىٰ التي لاينفع فيها مال ولا بنون، إلّا مَن أتى الله بقلب سليم، وقدّم لنفسه خيراً بالعمل الصالح.. وهو ما نقرأ أمثلة منه في

---

١ ـ الحديد/ ٢٧.

٢ ـ البخاري، ج٣، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.

قوله تعالىٰ: ﴿فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾[1].

﴿زُيِّنَ للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة﴾[2].

﴿الذين اتّخذوا دينهم لَهواً ولَعباً وغرّتهم الحياة الدنيا﴾[3].

وآيات كثيرة بهذا المعنى تُحذِّر من الإنخداع بالدُّنيا والإنشغال بملذّاتها.. بالرغم من كل هذه الآيات إلّا أنّ القرآن إنّما ينتقد مَن شغلته الدُّنيا عن الآخرة.. عن ذكر الله، وكانت الدنيا مبلغ علمه فلا يتعدّاها بعمله، ولكن القرآن لايدعو إلى ترك الدنيا وإنّما يؤكِّد على أن يسعى الإنسان ليعيش حياته في الدنيا طيِّبة وحسنة، كما هي في الآخرة، وأن لاينسىٰ حظّه من الدنيا مع كونه يهدف إلى السعادة في أُخراه، وهو ما نجده في نصوص أخرىٰ من القرآن الكريم:

﴿مَن عمل صالحاً من ذكر أو أنثىٰ فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[4].

﴿مَن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾[5].

---

١ ـ النجم/ ٢٩.

٢ ـ البقرة/ ٢١٢.

٣ ـ الأعراف/ ٥١.

٤ ـ النمل/ ٩٦.

٥ ـ النِّساء/ ١٣٤.

﴿ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾[1].

﴿وابتغ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرة ولا تَنسَ نصيبك من الدنيا﴾[2].

ويرى القرآن الكريم أنّ السعادة في الدنيا تؤمن من خلال اتباع طريق الآخرة، بل إنّ الإبتعاد عن ذكر الله واتباع الشهوات والمعاصي يؤدِّي بالإنسان إلى الشقاء في هذه الدنيا فضلاً عن الآخرة، يقول تعالىٰ: ﴿ومَن يَعشُ عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمىٰ قال ربِّ لم حشرتني أعمىٰ وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتي فنسيتها وكذلك اليوم تنسىٰ﴾[3].

فليست المشكلة في التمتُّع بالحياة الدنيا وملذّاتها، وإنّما هي في جعلها هدفاً، حيث تكون الحياة مجرّد فرصة ومتعة بذاتها، يستغل الإنسان سائر الطرق للوصول إلى راحته وشهواته دون أن يكون له ارتباط بالله تعالىٰ ودون أن تحده حدود يلتزم بها، ولا له غاية من عمل الخير وخدمة الناس، فهو يعبد نفسه ليس إلّا.. إنّ هؤلاء حالهم هو: ﴿إنّ الذين لا يرجون لقاءَنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولٰئك مأواهم النار﴾[4].

---

١ ـ البقرة/ ٢٠١.

٢ ـ القصص/ ٧٧.

٣ ـ طه/ ١٢٤.

٤ ـ يونس/ ٧ ـ ٩.

والمطلوب هو أن يعرف الإنسان مبتداه ومنتهاه.. لِمَ جاء إلى الدنيا؟ وإلامَ سينتهي به الحال؟ فإذا ما تبيّن ذلك عرف مقاصده وشخّص طريقه فلا يضل عنه، ولم يطلب من الناس أن يعادوا الدنيا ولا يجتنبوها، وكيف وقد خلقها الله وهم قد جبلوا عن التعلُّق فيها، لأنّ «الناس أبناء الدنيا والولد مطبوع على حبّ أُمّه»[1]، وهي «مزرعة الآخرة» كما في المأثور، وبالتالي وسيلة الإنسان لبلوغ رضا الله تعالىٰ والفوز بالجنّة.

كما إنّ من مُتطلّبات سعادة الإنسان واستغنائه عن الحرام وخدمته الناس والعمل الصالح، أن يكون الإنسان مكتفياً، بل يملك ما ينفقه على نفسه ويساعد به الآخرين، لذا نقل عن رسول الله(ص) قوله: «لا تسبّوا الدنيا فَنِعمت مطية المؤمن فعليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشرّ، إنّه إذا قال العبد: لعن الله الدنيا، قالت الدنيا: لعن الله أعصانا للرب»[2].

وقال(ص): «ليس من حبّ الدنيا طلب مَن يصلحك»[3].

وقد قال أحد أصحاب الإمام جعفر الصادق له: «إنّا لنحبّ الدنيا، فقال له: تصنع بها ماذا؟ قال: أتزوّج منها وأحجّ وأنفق على عيالي وأنيل إخواني وأتصدّق، فقال له الإمام: ليس هذا من الدنيا، هذا من

١ـ عن علي بن أبي طالب الآمدي، غرر الحكم.

٢ـ البحار، ج٧٧، ص١٧٨.

٣ـ كنز العمال، ح٥٢.

الآخرة»[1].

نعم، المنهي عنه هو حُبّ الدنيا وجعلها أكبر همٍّ للإنسان، لأنّ الذي يحبّ الدنيا يسعىٰ لها سعيها وينسى الآخرة، ويركض وراء لذّاته من دون هدف سامٍ أو غاية رفيعة، فلا يطلب عبادة الرب الحق تعالىٰ، ولا يريد خدمة الخلق، وإنّما هو عابد نفسه متبع شيطانه: ليس إلّا.

ترىٰ ما قيمة حياة هذا الإنسان وما الغاية التي يصلها؟ وما الفرق بينه وبين سائر المخلوقات الحيوانية التي تطارد فريستها وتربي جسمها وتسيح في الأرض بلا هوىً، إبتغاءً لغرائزها الطبيعية؟

أمّا الإنسان وهو أشرف المخلوقات وقد خلق ليكون خليفة الله في أرضه وحامل رسالته، فإنّه أُريد له أن يكون ناشراً للفضيلة، عاملاً بالصالحات من أجل سعادته وغيره، مُعمِّراً الأرض بالعلم والعمل والخيرات، متجهاً إلى طاعة ربّه الذي خلقه وهداه، وقد سخّر الله تعالى الدنيا والسّماوات والأرض لخدمته وسعادته من خلال سلوك الطريق الصحيح الذي به سلامته وسلامة المجتمع الإنساني.

ولذا، فإنّ مَن يريد نفسه فقط لايمكن أن ينفع الآخرين، ومَن كانت الدنيا فقط غايته لايعمل الخير ويقدم الصالحات لآخرته، بل

١ـ بحار الأنوار، ج٣، ص١٠٦.

كانت الدنيا همّه وغمّه ولذّته وأولاه وآخرته.. فلا يمكن أن يكون بذلك عابداً لله عاملاً له، لذا يقول رسول الله(ص): «حُبُّ الدُّنيا وحُبُّ الآخرة لا يجتمعان في قلب أبداً»[1].

عاشراً ـ السير نحو الله، هو الكمال المطلق:

قال تعالىٰ: ﴿يا أيُّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فمُلاقيه﴾[2].

وهكذا تكون غاية سير الإنسان وهدف معاناته وتضحياته هو الوصول إلى الله تعالىٰ، الذي فطره وخلقه وكان منه مُبتداه وإليه مُبتغاه.

قال تعالىٰ: ﴿الذين إذا أصبتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾[3].

والعودة إلى الله تعالىٰ لاتقتصر على الموت الذي ترجع فيه الرُّوح إلى بارئها وخالقها، بل هي أيضاً تُجدِّد إتجاه السير في هذه الحياة، لتكون كل لحظة وكل خطوة فيها هي نحو السموّ والتكامل، نحو الإقتراب من الله تعالىٰ، بالتخلُّق بأخلاقه والتحلِّي بالجلال والجمال من صفاته.. إنّها رحلة نحو الكمال المطلق، نحو الأسماء الحُسنىٰ التي أمرنا بدعوته بها.

١ـ تنبيه الخواطر، ص٣٦٢.

٢ـ الإنشقاق/٦.

٣ـ البقرة/١٥٦.

﴿ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها﴾[1].

إنّنا عندما نبدأ كل أمر في حياتنا بـ(بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم)، وعندما نقول (يا رحمٰن يا رحيم)، فإنّنا نستنزل هذه الصفة العظيمة الوارفة الظلال «الرَّحمة» إلى حياتنا لتكون كل لمحة منها تجلِّياً وتمظهراً لها، ليكون عالم الإنسان فسيحاً رائعاً وجميلاً رائعاً بنسيم الرحمة المنتشرة في أجوائه.

وهكذا عندما نتذكّر ونستذكر صفة «العليم» ونلهج بذكر إسم الله بهذه السمة، فإنّنا من حيث نشعر أو لانشعر، ونريد أو لا نريد، نتّجه نحو تعظيم العلماء وتلمس الطريق نحو نور المعرفة وضياء العلم.

وعندما يكون الله تعالىٰ، في عقيدة المسلم وفي كتابه الكريم، قابل التوب، الغفّار لمن اهتدىٰ، المُكفِّر عن سيِّئات عباده النادمين والمستغفرين، فكيف يمكن للمسلم أن لايكون كذلك؟

كيف يمكن أن يكون قاسياً مُتشدِّداً يؤاخذ الآخرين على أخطائهم ولا يعفو عن سيِّئاتهم ولا يمنحهم الفرصة لإصلاح أوضاعهم؟ إنّ إنساناً هكذا يخالف نهج ربّه ولا يقارب صفاته وخُلقَه، ولا يسير بالتالي نحوه.

وعندما يكون «السلام» إسماً مقدّساً من أسماء الله الحُسنىٰ،

---

١ ـ الأعراف/ ١٨٠.

فهو ﴿السلام المؤمن المهيمن﴾[1]، حيث يتنزّه الله تعالىٰ عن كلّ العيوب والآفات، فإنّ «السلام» وإشاعة «السلام» سيكون هدفاً دائماً للمؤمنين أينما حلّوا وأينما رحلوا.

انظر كيف تكون تحيّة المسلم: ﴿سلام﴾[2].

ومنهجه تبادل السلم والصلح مع الآخرين، كما قال تعالىٰ: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾[3].

وهكذا يواجه المؤمنون الجاهلين بلغة السلام: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾[4].

ويعمل المسلم من أجل سلامة المجتمع، من أجل عافيته من كل نقص أو شائبة، في نفس الوقت الذي يعمل فيه على سلامة نفسه وسموها، حتى يبلغ القمّة في دار السلام: وهي الجنّة، عندما يكون من أهلها، بهداية الله ولطفه ورحمته.

﴿يهدي به الله مَن اتّبع رضوانه سبل السلام﴾[5].

وهكذا يكون الهدف من التربية الدينية هو القرب من الله تعالىٰ والتخلُّق بأخلاقه.. أي لكي يكون الإنسان ربّانياً والمجتمع

١ـ الحشر/ ٢٣.

٢ـ الزخرف/ ٨٩.

٣ـ الأنفال/ ٦١.

٤ـ الفرقان/ ٦٣.

٥ـ المائدة/ ١٦.

رحمانياً.

ولمّا كان الله تعالىٰ هو مجمع صفات الجلال والكمال، كان الإنسان ـ في مسيرته الإيمانية ـ عاملاً من أجل كمال نفسه وجلال روحه وجمال عمله.. ليتزيّن بكل ما يجعله لائقاً لكي يكون خليفة لله تعالىٰ في أرضه.. مُمثِّلاً له عندما يستطيع أن يعرض بسلوكه بعضاً من أخلاق ربّه.

مناهج التربية الاسلامية

كما إنّ للتربية الدينية مقاصد، فإنّ لها مناهج تقرب الناس منها وتوصلهم إليها، وينبغي أن تكون المناهج من صلب الأهداف ومتجانسة معها.

فإذا كانت إشاعة العفو والتسامح والرحمة من مقاصد الدين، فلا يمكن لمناهجه إلّا أن تتسم بهذه الصفات وتبتعد عن الإكراه والشدّة والغلظة.

وعندما تكون المناهج مجافية ومجانبة للمقاصد والأهداف، فإنّها لاتُحقِّق تلك المقاصد، بل قد تؤدِّي إلى نتائج عكسيّة، سواءً كان ذلك على مستوى الأفراد أو المجتمع، لذا كان لزاماً أن نتعرّض لدراسة المناهج ببعض من التفصيل، وفيما يلي نذكر ما تيسّر من معالمها وأساليبها، ومن الله التوفيق.

١ ـ الإختيار وعدم الإكراه:

قال تعالى: ﴿لا إكراهَ في الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَيِّ... ﴾[1].

الدين قبل كل شيء «إيمان في القلب»، ولا يعلم ما في القلوب إلّا

---

١ ـ البقرة/٢٥٦.

الله، ولا يمكن إخضاع القلوب وانقيادها بالقوّة والإكراه، بل لابدّ أن تكون استجابة النفوس عن طواعية، وإيمانها عن قناعة وتسليم.

قال تعالىٰ: ﴿فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويُسلّموا تسليماً﴾[1].

وإذا كان الله يُريد أن يُعطي أحداً سلطاناً على الناس، فإنّه يعطي نبيّه الكريم محمّداً (ص) بما أوتي من هدىً ورسالة ومكانة عند الله، ومع كل هذا فإنّ الآيات جاءت تترىٰ لتؤكّد أنّ أمر الهداية، ليس بيد أحد وإنّما هو بيد الله، وأنّ دور الرسالة بهذا الشأن، هو دور البلاغ والتذكير ليس إلّا، لنقرأ معاً في القرآن.

قال تعالىٰ: ﴿وما على الرسول إلّا البلاغ المبين﴾[2].

﴿فَذَكِّرْ إنّما أنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيهِم بِمُسَيطِرٍ﴾[3].

﴿إنّك لن تهدي مَن أحببت ولكن الله يهدي مَن يشاء﴾[4].

وقد دخل في الإسلام قوم كثير في صدر الإسلام، وعاملهم الرسول (ص) معاملة المسلمين، وكذلك هو حكم الشرع مع كل مَن أظهر الإسلام، ولو كان ذلك رياءً أو نفاقاً، ولكن الله تعالىٰ يصف بعض هؤلاء بقوله: ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا

---

١ ـ النّساء/ ٦٥.

٢ ـ العنكبوت/ ١٨.

٣ ـ الغاشية/ ٢١ ـ ٢٢.

٤ ـ القصص/ ٥٦.

أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم... ﴾[1].

فالإسلام أمر عام، ولكن الإيمان هو كما ورد في الحديث الشريف: «ما وقر في القلب وصدّقه العمل».. وعلى أساس هذا الإيمان وما انعقدت في القلب من نيّات، يحاسب المرء ويعاقب ويثاب كما قال تعالىٰ: ﴿لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ في أَيْمانِكُم ولكِن يُؤاخِذُكُم بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُم... ﴾[2].

وكما جاء في الحديث الشريف عن رسول الله(ص): «إنّما الأعمال بالنيّات ولكل امرئٍ ما نوىٰ».

هذا الإيمان بالغيب وبالله تعالىٰ وملائكته ورسله واليوم الآخر، والذي يغرس في القلب تقوى الله وحبّ الخير والعمل الصالح، لايعلمه إلّا الله، كما قال تعالىٰ: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقىٰ ﴾[3].

ومن هنا لايمكن أن يغرس هذا الإيمان بالإكراه والقوّة، ولا يمكن أن ينمو ويزدهر في نفس الإنسان إلّا بالرِّضا والقناعة والإطمئنان، وهنا مبدأ أساس في التربية الدينية، تبنىٰ عليه جملة برامجها بشكل عام.

فالبرامج الدينية ينبغي أن تبنىٰ على البيان ﴿هذا بيان للناس

---

١ ـ الحجرات/ ١٤.

٢ ـ البقرة/ ٢٢٥.

٣ ـ النجم/ ٣٢.

وهدىً وموعظة للمتقين ﴾[1].

ويشمل ذلك بيان عقيدة الدين وعظمة تشريعاته، مع التركيز على القرآن الكريم وبيان السنّة الشريفة له، قال تعالىٰ: ﴿ وأنزلنا إليك الذِّكر لتبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون ﴾[2].

ومن ثمّ أن يكون الدافع للإلتزام بالدين هو الإيمان بالله جلّ شأنه وحبّه والترغيب والترهيب منه تعالىٰ، لا من السلطان، أو المعلِّم، أو الأب، بل ينبغي أن تبنىٰ علىٰ أساس المحبّة والمودّة والرأفة والرحمة، قال تعالىٰ: ﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ﴾[3].

ومهما التزم الفرد بالمظاهر الدينية تحت سلطان الخوف والرهبة من غير الله، فإنّه سيفلت من ذلك الإلتزام عند أوّل فرصة، حيث لا قوّة ترغمه أو تحاسبه، لذا بني الإلتزام الديني على أساس استحضار الله تعالىٰ في الليل والنهار، في السرّ والعلن ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾[4]، ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾[5].

---

١ ـ آل عمران / ١٣٨.

٢ ـ النحل / ٤٤.

٣ ـ آل عمران / ٣١.

٤ ـ الحديد / ٤.

٥ ـ غافر / ١٩.

٢ـ التيسير:

قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ﴾[1].

بُنيت كثير من المناهج الدينية على أساس التشدُّد في التعامل مع النفس وتكليف المؤمنين صعاب الأُمور وشدادها، مثل كثرة العبادة والصوم واللباس والخشن وقلّة الطعام واجتناب لذائذ الدنيا والعزوف عن الناس، حيث يروون في ذلك روايات لم يعلم صحّتها أو صحّة تأويلها، من ذلك: «خير الأُمور أحمسها»، وأنّ «الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر» وغير ذلك.

وهذا الإتجاه المتشدِّد بهذا الشكل، لاينسجم مع روح التشريع في القرآن وسنّة الرسول الكريم(ص).

فالآية أعلاه صريحة في ذلك، بأنّ المراد من التشريع التيسير لاالتعسير، وهناك قواعد تشريعية مماثلة أخرى تحكم كل تكليف، منها قوله تعالىٰ: ﴿لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلّا وُسعَها﴾[2]، فالتشريع يلزم بحدود طاقة الإنسان وتحمله، ومن هنا قال الفقهاء:

ـ قاعدة رفع العسر والحرج، قوله تعالىٰ: ﴿وَما جَعَلَ عَلَيكُم في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[3].

ونجد في السنّة النبويّة الشريفة تأكيداً على يُسر الدين

١ـ البقرة/ ١٨٥.

٢ـ البقرة/ ٢٨٦.

٣ـ الحج/ ٧٨.

واستحباب التيسير فيه، من ذلك قوله(ص): «إنّ هذا الدين متينٌ فأوغل فيه برفق، فإنّ المُنبَتَّ لا ظهراً أبقىٰ ولا أرضاً قطع»[1].

وقوله أيضاً: «يَسِّروا ولا تُعسِّروا، وسكِّنوا ولا تنفِّروا»[2].

لأنّ التغليظ في الدين يؤدِّي إلى نفرة الناس من التكاليف وابتعادهم عنها، فعن ابن الأدرع قال: «إنّ رسول الله(ص) رأىٰ رجلاً يُصلِّي فترآه ببصره ساعة، فقال(ص): أتراه يُصلِّي صادقاً؟ قلت: يا رسول الله، هذا أكثر أهل المدينة صلاةً، فقال: لاتُسمعه فتهلكه، وقال(ص): إنّ الله أراد بهذه الأُمّة اليُسر ولا يُريد بهم العُسر»[3].

فإذا لم يستطع الإنسان الصلاة من قيام، صلّىٰ من جلوس، فإن لم يقدر صلّىٰ نائماً، بحسب قدرته.. وإذا لم يجد ماءً أو أضرّه الوضوء تيمم، وإذا كان شهر الصوم رمضان ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾[4].

وأرجع الفقهاء تقدير الموضوعات إلى المكلّف، فهو الذي يُقدِّر أنّ ذلك يضرّه، أو أنّه محرجٌ في عمل ما، أو مُضطرٌّ لغيره، كأكل الميتة وغير ذلك.

---

١ ـ كنز العمال، المتقي الهندي، ج٣، ص٤٠، رقم الحديث ٥٣٧٧، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت –لبنان.

٢ ـ الدرّ المنثور: ج١/ص١٩٢.

٣ ـ المصدر السابق: ج١/ص١٩٢.

٤ ـ البقرة/ ١٨٤.

وخلافاً للإتـجاه المـتعسّف والمـتشدِّد فـي التـربية والمـناهج الدينية، التي هي الغالبة في الكثير من المجتمعات الإسلامية، تؤدِّي إلى إيقاع المسلم المكلف في الحرج الشديد والضرر، وقد تدفع به إلى الإنفلات من الإلتزام، فإنّ المسلم ينبغي أن يربّىٰ على أسـاس إدراك تلك القواعد الشـرعية والتـي سـتعينه فـي أن يكـون عـملياً وواقعياً في حياته، دون أن يجد تنافياً بين ضروراتها والتـزامـها الديـني المـرن، وسـيجعل ذلك مـن الإلتـزام يسـراً، كـما أراده الله تعالىٰ، وسيزيد مساحة المسلمين الملتزمين.

وفي السنّة النـبويّة نـجد أنّ رسـول الله(ص) مـا عـرض عـليه أمران إلّا واختار أيسرهما وأقلّهما مشقة.

ومن هنا قال الفقهاء باستحباب الإستفادة من الرخص الدينية، فإذا تردد الأمر بين التزامـين أحـدهما أكـثر التـزامـاً والآخـر فـيه رخصة وتسهيل، حبب العمل بالرخصة والتيسير لأنّه هـدية مـن الله تعالىٰ لعباده، فلا ينبغي ردّها.

٣ـ التدرُّج في التعليم والتكليف:

قال تعالىٰ: ﴿يا أيُّها النّاسُ إن كُـنتُم فـي رَيْبٍ مِـنَ البَـعْثِ فـإنّا خَلَقناكُم مِن تُرابٍ ثُمّ مِن نُطفَةٍ ثُمّ مِن عَلَقَةٍ ثمّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغَيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكم ونُقِرُّ في الأرحامِ مـا نشـاءُ إلى أجَـلٍ مُسَـمّىً ثـمّ نُخرِجُكُم طِفلاً ثمّ لِتبلُغوا أشُدَّكُم ومِنكُم مَن يُتوَفّىٰ ومِنكُم مَن يُـرَدُّ

إلى أَرْذَلِ الْعُمرِ لِكَيلا يَعلَمَ مِن بَعْدِ عِلمٍ شَيئاً... ﴾[1].

سُنّة الله تعالىٰ في الحياة التدرُّج وخلق الأشياء وتكوينها على مراحل، يعقب بعضها بعضاً، رغم أنّ الله سبحانه وتعالىٰ يستطيع أن يقول للشيء ﴿كُن فَيَكون﴾[2]؛ ولكن هكذا شاءت إرادته، لتسير الحياة بسنن وقوانين تحفظ لها ديمومتها وبقاءها.

وملاحظة التدرُّج في سائر أعمال البشر وبرامج حياتهم يوفر انسجاماً بينها وبين سنن الطبيعة والحياة، كما يضمن لها قسطاً أوفر من النجاح والتوفيق.

ولذا كان جديراً أن يلاحظ في منهج التربية من الإنسان مدىٰ قدرته على استيعاب المسائل الدينية وكذلك مقدار طاقته واستطاعته، إذ ﴿لا يُكلِّف اللهُ نفساً إلّا وُسعَها﴾[3]، فلا ينبغي التعجيل بمسائل لا يستوعبها الإنسان، أو لم يُكلَّف بها بعد، وإنّما يساير في نشوئه ويراعىٰ عقله وإدراكه، وقد ورد في الحديث الشريف: «أمرنا معاشر الأنبياء أن نُكلِّم الناس على قدر عقولهم».

فالطفل الصغير لا يطلب منه الكثير، بل يترك على سجيّته، فهو يميل إلى اللعب واللهو، ويتعامل بحواسه أكثر ممّا يتعامل بعقله وشعوره، والطريق الأوفىٰ لجذبه إلى السلوك القويم هو توفير جو

---

١ ـ الحج/ ٥.

٢ ـ آل عمران/ ٤٧.

٣ ـ البقرة/ ٢٨٦.

بيتي مناسب مفعم بالمحبّة والمودّة ومقيّد بالأخلاق والأعمال الصالحة، وهذا الجو سيفتح في قلب الطفل، ومن ثمّ عقله، نافذة تطلّ على الحياة بفطرة سليمة محبّة للخير.

هذا الطفل سيسحب تعامل والديه على كل ما يفعلانه، فإذا أحبّاه وأحبّهم أحبّ أفعالهم، من صلاة وذكر ومسجد ومصلىٰ وصدق وبر وطيب خُلُقٍ.. وإذا ما كرههم لا سمح الله، كره فعالهم، ما صحّ منها وما أخطأ، لأنّه سينظر إليها بنظارة سوداء قاتمة.

وإذ يكبر الطفل ويبدأ بالذهاب إلى المدرسة، ينتقل تدريجياً من عمر التقليد اللّاواعي إلى التلقي والتعلّم، وهنا أيضاً يبدأ معه بتعليمه الحسن والقبح في الأشياء تدريجياً، لينمىٰ فيه حس حبّ الخير وكره الشر، ومن ثمّ يطلب منه برفق تأدية بعض الفروض تطوّعاً وبمقدار ما يستطيع، ليصلّي بعض الصلوات ـ وهو لم يكلَّف بعد ـ ويصوم بعض النهار بمقدار استطاعته ومن دون فرض، ويُشجعُ على عمله الخيِّر ويُكافأ على تطوّعه بذلك أحياناً، لا دائماً، وهكذا ينمو ويكون قد جرّب التكاليف واعتادها، والعادة هنا على أي حال مفيدة ومطلوبة، فالأولاد الذين يعتادون الصلاة قبل البلوغ، يستمرون عليها بعده بصورة أفضل، لأنّها أصبحت جزءاً من حياتهم لا يرتاحون بدونها.

ومن ثمّ على أبواب البلوغ، يُهيَّئ الولد لإستقبال ذلك كأمر طبيعي يمرّ به كلّ الناس، كمرحلة من النضج والتكامل، وليذكّر الولد بتكاليفه، أو يكون قد اعتادها وعمل بها من قبل، ومن ثمّ يُنبَّه

بهدوء ورفق على ما يجب عليه من التزامات تليق به كرجل (أو امرأة)، ومن ثمّ يبدأ مع بلوغه وبعد بتعليمه الحلال والحرام، في المسائل الشخصية أوّلاً، ثمّ لاحقاً بالمعاملات، ليتمّ بذلك تكليفه بواجباته الشرعية، ويبلغ رشده بحسن تدبيره وصلاح حاله في أُمور دنياه وآخرته.

وبذلك تكون أمامنا ثلاثة أنماط من التربية:

١ ـ الأسوة، وتؤثر أكثر في مرحلة الطفولة.

٢ ـ التعليم والتدريب فيما بعد الطفولة حتى البلوغ.

٣ ـ التكليف والإشعار بالمسؤولية عند البلوغ وبعده.

ولا شك أنّ سلوك الوالدين المنضبط وعلاقتهما الودّية مع الطفل وعنايتهما الواعية به بحسب عمره، شروط أساسية لنجاح أي برنامج تربوي.

٤ ـ التربية على أساس العلم:

قال تعالىٰ: ﴿الرَّحمٰنُ * عَلَّمَ القُرآنَ * خَلَقَ الإنسانَ * عَلَّمَهُ البَيانَ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿قالَ قَدْ أُجِيبَت دَعوَتُكُما فاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِ سَبِيلَ الّذينَ لايَعْلَمونَ﴾[2].

---

١ ـ الرَّحمٰن/ ١ ـ ٤.

٢ ـ يونس/ ٨٩.

وقال جلّ شأنه: ﴿كَما أَرسَلنا فِيكُم رَسولاً مِنكُم يَتلُوا عَليكُم آياتِنا ويُزَكِّيكُم ويُعَلِّمُكُمُ الكتابَ والحِكمَةَ ويُعَلِّمُكُم ما لم تكونوا تَعلَمونَ﴾[1].

الآيات الكريمة أعلاه وغيرها من الآيات، تعلمنا أنّ هناك ارتباطاً وثيقاً بين العلم والإيمان، والمعرفة والتقوىٰ، حتى كان إتباع الدين هدىً، وطاعة الله وولايته نور، وفي المقابل اقترن الكفر والنفاق والفسق بالضلال والجهل والجاهلية.

في الآية الأُولىٰ: نجد رحمة الله تتجلّىٰ في خلق الإنسان وتنشئته، تعليمه القرآن وتعليمه البيان، وهنا إشارة إلى ارتباط العلم بالقرآن، وأنّهما بابان من أبواب الرحمة الإلٰهيّة، ومظهران من مظاهر لطفه وعنايته بالإنسان، ولابدّ من أن أحدهما ينفتح على الآخر ويرتبط به.

وفي الآية المباركة التالية من سورة يونس، نجد الأمر الإلٰهي لنبيَّيْه موسىٰ وهارون(ع) بالإستقامة والإستمرار على طريق الحق والصدق وعدم اتباع سبيل الذين لايعلمون، سبيل الجهال من الكافرين والعاصين لأمر الله.

وفي الآية الأخيرة من سورة البقرة، نقرأ فيها ملامح المنهج التربوي المتكامل الذي يرسمه الله تعالىٰ للرسول(ص): المنهج الجامع بين التربية والتعليم، بين تزكية النفس وتهذيبها بالأخلاق

---

١ ـ البقرة/ ١٥١.

الحسنة والملكات الروحية العالية، وبين التعليم الشامل: تعليم القرآن وتعليم الحكمة ومنتهى العلم، ممّا لايعلمه الإنسان، ممّا يفتح الله عليه من معرفة مباشرة بواسطة الوحي والأنبياء، أو بما أعطاه من عقل مستعد للعلم يهيّؤه الله تعالىٰ للإنفتاح على الكون، بما فيه من أسرار العظمة الإلٰهيّة وجمال الوجود، كمال قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِم حتّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أنَّهُ الحَقُّ...﴾[1].

نعم، إنّه وعد إلٰهي للإنسان بأن يرى الكثير من الآيات ويعرف العظيم من المعلومات المكتنزة في الكون إذا ما اتّبع سبل العلم وسار في الوجود ناظراً ومكتشفاً ومتعلّماً ومتفكّراً، كما تحثّه على ذلك آيات كثيرة من القرآن: ﴿إنّ في خَلْقِ السَّمٰواتِ والأرضِ واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ والفُلْكِ الّتي تَجري في البَحرِ بِما يَنفَعُ النّاسَ وما أنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ فأَحْيا بِهِ الأرضَ بَعدَ مَوتِها وبَثَّ فِيها مِن كُلِّ دابَّةٍ وتَصرِيفِ الرِّياحِ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بَينَ السَّماءِ والأرضِ لآياتٍ لِقومٍ يَعقِلونَ﴾[2].

والإرتباط بين التربية والتزكية والتعليم ليس ارتباطاً عفوياً وسطحياً، بل هو في العمق، لأنّ تربية النفس وتزكيتها يؤدّيان إلى شرح النفس وقبولها للحق بسهولة، من دون حجب داخلية كالكبر

---

١ ـ فُصِّلت/ ٥٣.

٢ ـ البقرة/ ١٦٤.

والعجب والحقد والحسد والتي تجعل الإنسان متعصباً لرأيه منغلقاً عن فكر غيره، كما إنّ التعليم يُهيِّئ للإنسان سبل المعرفة: معرفة الذات ومعرفة العلم وقوانين الوجود، وبالتالي يفهم الإنسان ما يضرّه فيجتنبه، وما ينفعه فيكتسبه، وبذا تتزكّىٰ نفسه وتتربّىٰ شخصيته.

فلو علم الإنسان حق العلم بما في الذنوب من سوء وآثام وأضرار تهدد حياة الإنسان ومجتمعه، فإنّه سيبتعد عنها ويتحاشاه ما استطاع، فهل يمكن لإنسان عاقل وسوي أن يأكل طعاماً فاسداً أو يشرب ماءً ملوثاً بالجراثيم.. ولكن المشكلة أنّ الناس ينظرون إلى زينة ظاهرة في الممارسات التي تنتج عنها الذنوب، وما يعلمون ماوراء تلك المظاهر الخادعة من بلاء ومخاطر وأمراض نفسية وجسدية وسوء عواقب.

وكذلك الواجبات والطاعات، فإنّ الله تعالىٰ قد شرَّعها وأوجبها، لالينتفع هو بها، وهو الغنيّ الحميد، ولكن من أجل مصلحة العبد، مصلحة الإنسان وهديه ورقيّه دون غيره، من أجل حياته وسعادته في هذه الدنيا وفي الآخرة، ولذا كثيراً ما يُذكِّرُ اللهُ تعالىٰ بأنّ القيام بالواجب الديني هو خير للإنسان، وهو يفهم ذلك إنْ تفكّر وعقل وازداد علماً، فالله تعالىٰ يقول: ﴿وأَن تَصُومُوا خَيرٌ لَكُم إن كُنتُم تَعلَمونَ﴾[1].

---

١ ـ البقرة/ ١٨٤.

﴿وأَن تَصَدَّقوا خَيرٌ لَكُم إن كُنتُم تَعلَمونَ﴾[1].

ومن هنا ينبغي أن تقوم مناهج التربية الدينية على أساس العلم وبيان العلل والأسباب والآثار والنتائج للأعمال، حتى يكون الإنسان على بيّنة من أمره ويتبع سبيل الهداية بعلم وبصيرة بل يقين، لا بدافع من الخوف أو الإجبار والإكراه ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرُّشد من الغيِّ...﴾[2].

وسبيل البيان هو منهج القرآن وطريق الدعوة الإلٰهيّة، فالله تعالىٰ الذي ﴿خَلَقَ الإنسانَ * عَلَّمَهُ البَيانَ﴾[3]، لم يتركه دون هداية وإرشاد وقائم على أساس التبيين والإيضاح، في كل مراحل الطريق.

قال تعالىٰ: ﴿ويُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنّاسِ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرونَ﴾[4]، و﴿لَعَلَّهُم يَتَّقونَ﴾[5]، ويستمر في البيان مخاطباً إيّاهم ﴿لعلّكم تعقلون﴾ و﴿لعلّكم تتفكّرون﴾ و﴿لعلّكم تهتدون﴾.. وغيرها من الغايات السامية المترتبة على بيان الله للناس وهدايته لهم.

وهكذا كانت الغاية من إرسال الرُّسُل هو ﴿البَلاغُ المُبِين﴾[6]، ولم

---

١ ـ البقرة/ ٢٨٠.

٢ ـ البقرة/ ٢٥٦.

٣ ـ الرَّحمٰن/ ٣ ـ ٤.

٤ ـ البقرة/ ٢٢١.

٥ ـ البقرة/ ١٨٧.

٦ ـ النحل/ ٣٥.

يأتوا الناس بطلاسم لا يفهمونها أو رموزاً لا يعرفونها، بل كان قولهم ﴿هٰذا بَيانٌ لِلنّاسِ وهُدىً ومَوعِظَةٌ لِلمُتَّقِينَ﴾[1]، والرُّسُل - موسىٰ وعيسىٰ ومحمّد - جاءوا بالبيِّنات (البقرة/ ٩٢، ٨٧، ٩٩)، وكانت قمة الوضوح والبرهان في القرآن الكريم الذي هو ﴿هُدىً لِلنّاسِ وبَيِّناتٍ مِنَ الهُدىٰ والفُرقانِ﴾[2].

فعلىٰ هذا الأساس البيِّن الواضح اليسير يجب أن تبنىٰ مناهج التعليم الديني وتكتب كتب الدين والفقه والشريعة، وبهذا المنهج المستدل بلسان الناس ومنطقهم يأتي الخطاب الإسلامي ووسائل التربية والتعليم، كما قال تعالىٰ: ﴿وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه ليبيِّن لهم...﴾[3].

وأخيراً، فإنّ «العلم كنز ومفتاحه السؤال»، فبروز السؤال في ذهن الإنسان الذي ميّزه الله بالعقل والفكر عن سائر مخلوقاته أمر طبيعي، بل مطلوب لتَعَلُّمِ الإنسانِ ورشده، والطريق إلى الجواب في المسائل الدينية يكون بالرجوع إلى القرآن والسنّة وأهل العلم بهما، كما يرجع في كل علم إلى مصادره ومراجعه من كتب وعلماء ومتخصصين.

قال تعالىٰ: ﴿ولو ردّوه إلى الرسول وأولي الأمر منهم لعلمه

---

١ - آل‌عمران/ ١٣٨.

٢ - البقرة/ ١٨٥.

٣ - إبراهيم/ ٤.

الذين يستنبطونه منهم ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ فاسألوا أهل الذِّكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[2].

ونخلص ممّا سبق أنّ المناهج الدينية يجب أن تبنىٰ على العلم إلى جنب التربية، وعلى التبيين دون الغموض والتعمية، وأن تحث على التفكُّر دون الجمود والتحجُّر، وأن يُفتح الباب أمام المتعلِّم للسؤال والإستفسار، وبالتالي أن تقوم على الدليل والبرهان لا الإكراه والقوّة.

٥ـ التوصية والإرشاد:

قال تعالىٰ: ﴿ وتواصوا بالحقّ * وتواصوا بالصَّبر ﴾[3].

العلاقة بين الوالد والولد ليست كسائر العلاقات الإجتماعية الأخرىٰ.. إنّها علاقة قائمة على المودّة والرّحمة والتواصل والثقة، خصوصاً إذا كان الوالد قريباً من أولاده رؤوفاً بهم، كما ينبغي، فحينها ينظر الولد إلى حاضره ومستقبله وكل ما يحيط به بنظارة والديه، صغيراً، وإذا ما كبر فإنّه يشاركهما النظر ويشاطرهما الفكر، فهما رفيقا دربه وصديقا قلبه.

وكان لزاماً على الوالدين أن يُقدِّما لأولادهما، بل لسائر الناس،

١ـ النِّساء/ ٨٣.

٢ـ الأنبياء/ ٧.

٣ـ العصر/ ٤ـ٥.

ما كسباه من علم وتجربة عن الحياة ومقاصدها، ليقرِّبا إلى الولد الواقع ويختطا له الدرب بدلاً من العناء وضياع الوقت وفرص الحياة، وهذا هو معنى الوصيّة في اللغة، وهو: التقدُّم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ[1].

ولا يقال هنا: دعنا نتركهم يُجرِّبون حظّهم في الحياة، فيخطأون كما أخطأنا، ويتعلّمون بأنفسهم فيعتبرون، لأنّ ذلك يعني أن نتركهم وشأنهم بلا هداية ولا إرشاد ليواجهوا القدر، بلا بصيرة ولا تحذير، شأن مَن يترك الطريق بلا عامات للمرور ولا إرشادات للسير، ولا تبيين لمقاصده وغاياته، ليضلّ مَن يضلّ، ويواجه المخاطر والمنعطفات مَن يسير فيه، بلا سابق إنذار أو توعية.

إنّ هذا يعني أن ندفع بالناس وبالأولاد إلى المخاطر والهاوية، وقد يقعون في محذور خطر ويواجهون حادثة لاتدع لهم مجالاً لا للإعتبار ولا للندم.

فهذا النبي نوح وهو يرىٰ أنّ الطوفان قادم والماء يحيط بالناس من كل جانب، وابنه يُلاحقه الموج، فكان واجباً عليه أن يحذِّره ويناديه لينقذه من الغرق المحتم، ولكن الولد غير الصالح كان مغروراً بنفسه، فلم يستجب لدعوة أبيه، فكان مصيره كما حكاه القرآن: ﴿ونادىٰ نوحٌ ابنه وكان في معزل يا بُنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم

---

١ ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم، مادّة: وصىٰ.

اليوم من أمر الله إلّا مَن رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾[1].

والتوصية لاتعني أن نمنع الأولاد، من الإقدام والإبداع، بل أن نساعدهم على ذلك بتزويدهم بالمعلومات والخبرات التي تجعلهم يختصرون الدَّرب ويعون المخاطر وتوجههم نحو الغايات والمقاصد.

فالدنيا دار إبتلاء وإمتحان، وقد أفلح مَن استعدّ لذلك وتزوّد لتلك الطريق الصعبة بأحسن الزاد، كما قال تعالىٰ: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوىٰ ﴾[2].

وهذه هي سيرة الأنبياء، وسائر القادة الهداة، يهدون إلى أبنائهم أفضل الهدايا فيقدِّمون لهم الإرشاد والعظات، التي تحميهم من المخاطر وتبعدهم عن الزلّات.

فهذا إبراهيم أبو الأنبياء يدلّ أبناءه على الصراط المستقيم، يقول تعالىٰ: ﴿ووصّىٰ بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إنّ الله اصطفىٰ لكم الدِّين فلا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون ﴾[3].

وهكذا تنتقل الأمانة من جيل إلى آخر، ومن نسل إلى مَن بعده، لتبقىٰ علوم الدين ومعارفه في متناول الأبناء بعد الآباء، بوساطة

---

١ ـ هود/ ٤٢ ـ ٤٣.

٢ ـ البقرة/ ١٩٧.

٣ ـ البقرة/ ١٣٢.

الكتب الموروثة والتعاليم المتداولة، وهذا يعقوب يورث أولاده، خير ما يورث، فالمال يُفنىٰ والمُلك يزول، ولكن الهداية تبقىٰ مشعلاً ينير دروب الحياة.

يقول تعالىٰ: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾[1].

والتواصي يكون بأمرين، كما قال تعالىٰ: ﴿وتواصوا بالحقّ * وتواصوا بالصبر﴾[2].

فالأوّل منه التوصية بالتمسُّك بالحق، من خلال البيان والتعليم، وإراءة الطريق: ﴿إنّا هديناه النجدين إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾[3]، وتنوير الإنسان بما يجعله قادراً على التمييز بين الحق والباطل، وتمكينه، بالتربية والتعليم، لما يؤهِّله لحمل الأمانة ومواصلة المسير.

والثاني: التواصي بالصبر، بتحمّل الأمانة والصبر عليها.. الصبر في طريق الصالحين، والصبر بالإبتعاد عن الحرام وما يغضب الرب، وبالصبر على ما يُلاقيه الإنسان من أذىٰ وصعاب في حياته دون أن يحيد عن الدرب الصحيح، والصبر مع الأهل

---

١ ـ البقرة/ ١٣٤.

٢ ـ العصر/ ٤ ـ ٥.

٣ ـ الإنسان/ ٣.

الأحبّة والأصحاب، من خلال التحلّي بالأخلاق الحسنة، ومقابلة السيِّئة بالحسنة.

وكل ذلك يحتاج فيه الإنسان إلى مَن يعاضده ويسانده، حتى لايشعر بالوحدة في طريق الحق، ولا بالوحشة دون أنس الرفاق المؤمنين.

وهذا ما أكّدت عليه الدراسات النفسيّة وبيّنت أثر التحضير والإسناد من قبل المحيطين والعائلة خصوصاً، في تحمّل الإنسان للشدائد ومواجهته الصعاب وتجاوز الأزمات التي يمر بها[1].

ومَنْ أولىٰ من الولد بالرعاية والرفق والإرشاد والإسناد؟

ولابأس هنا بأن نُذكِّر الآباء بمسألة العدالة وعدم الإضرار عند الوصيّة، وهي المتعلِّقة بقسمة الميراث بعد الموت، فينبغي فيها تذكُّر الله سبحانه وتعالىٰ والتزام الحق والإنصاف، وتجنُّب الإجحاف والإضرار بالأولاد أو حرمان بعضهم مما قسّم الله لهم، فقد جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إنّ الله غفور رحيم﴾[2].

إنّ مَن تخوَّف من موصٍ ميلاً عن الحق أو تعمُّداً للإثم بحرمان أحد الورثة من الميراث، فذكّر الموصي بأن تلك الوصيّة فيها

---

١ ـ د. عبدالستار إبراهيم، العلاج النفسي الحديث قوة للإنسان، سلسلة عالم المعرفة (٢٧)، ص٢١٦ ـ ٢٢٢.

٢ ـ البقرة/ ١٨٢.

إجحاف للورثة، كأن يكون غنياً وقد أوصىٰ بما يزيد عن الثلث ليصرف في وجوه الخير أو لجهة معيّنة، فليس على المُذَكِّر ذنب، لأنّه تذكير بالحق، وهو مصلح تشمله رحمة الله وعظيم مغفرته، وفي الحديث الشريف: «إنّ الرجل والمرأة ليعملان بطاعة الله ستّين سنة، ثمّ يحضرهما الموت، فيضارّان في الوصيّة، فتجب لهما النار»، وقد قيل في معنى الحديث أنّهما يستحقّان العقاب، وليس الخلود في النار[1].

تجدر الإشارة إلى أنّ البعض يحرِمُ بناتِه الإناث بطرق مختلفة، منها الوقف الذُري، ويُخصِّص ذلك لأبنائه الذكور دون الأناث، فيضرُّ بِهِنّ، وعمله ذلك ناشئ عن فكرة جاهلية، أنّه يُخلَّد في أولاده الذكور، وأنّ البنات يتزوّجن وتكون حصّتهنّ من الميراث لأولاد غيره، ولا يعلم أنّ المال مال الله سبحانه وتعالىٰ، وقد أوكله إليه ليوصله إلى عباده، كما أمر الله سبحانه وتعالىٰ، وقد قضت إرادته أن يتم تداول الثروت بالميراث، بين الناس فيعمّ الخير ويصل إلى مختلف الجهات، فإن وصلت ثروة الرجل بواسطة بناته إلى الغير، فهو من باب البرِّ الذي يتّسع ووجه من وجوه الخير التي تسود وتنتشر بركاته، كما أمر الله وبإذنه، وعليه أن لايظلم ولا يحرم أحداً من مستحقّيه منه.

نعم، ربّما جاز له أن يعوض ممّا أنعم الله عليه بعضاً من ذُرِّيّته

---

١ ـ التفسير الواضح الميسر، الصابوني، ص٦٦.

وأقاربه ومُتعلِّقيه ومعارفه، ممّن عملوا معه ويرىٰ لهم عليه جميلاً، أو قدّموا له

خدمة تستحق التقدير، يستطيع أن يعوضهم بالهبة لهم من ماله أثناء حياته، أو الوصيّة لهم بما لا يزيد عن ثلث تركته بعد وفاته.

الجدير ذكره أنّ المذاهب الإسلامية تختلف في جواز الوصيّة ضمن الثلث، لمن يرث من أهله، كالزوجة والأولاد، فيذهب معظمها إلى عدم جواز ذلك بناءً على ما رُوِي من أنّ «لا وصيّة لوارث»(*)، ويرىٰ بعضها جواز ذلك بناءً على أنّ الآية الشريفة، قوله تعالىٰ: ﴿كُتب عليكم إذا حضرأحدكم الموت إن ترك خيراً الوصيّة للوالدين والأقربين بالمعروف حقّاً على المتقين﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذّكر مثل حظِّ الأُنثيين فإن كنَّ نساءً فوق اثنتين فلهنّ ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكلِّ واحد منهما السُّدس ممّا ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأُمِّه الثُّلُثُ فإن كان له إخوة فلأُمِّه السُّدُس من بعد وصيّة يوصي بها أو دين...﴾[2].

قدّمت الوصيّة على الإرث، وبناءً على ضعف سند الحديث

---

* ـ الرواية لم تثبت صحّتها والبخاري ومسلم لم يرضياها، وقد تكلم في تفسير المنار على سندهما (/٢ ص٣٨)، انظر: البيان في تفسير القرآن، للخوئي، ص٢٩٨.

١ ـ البقرة/ ١٨٠.

٢ ـ النّساء/ ١١.

المذكور «لا وصيّة لوارث»، فتستخرج الوصيّة بما لايزيد الثلث، وتصرف طبقاً للوصيّة سواءً كان فيها شيء للوارثين أو لغيرهم، ويقسَّم الباقي على الورثة.

وأخيراً، نختم هذا الكتاب بذكر وصيّة لقمان الحكيم لإبنه وقد ذكرها الله تعالىٰ في قرآنه الكريم، لتكون دستوراً أو مثالاً لما يجب التوصية به والتأكيد عليه، قال جلّ وعلا: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومَن يشكر فإنّما يشكر لنفسه ومَن كفر فإنّ الله غنيٌّ حميد * وإذ قال لقمان لإبنه وهو يعظه يا بُنيَّ لا تشرك بالله إنّ الشِّرك لظلم عظيم * ووصَّينا الإنسان بوالديه وحملته أُمُّهُ وهناً على وهنٍ وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتَّبع سبيل مَن أناب إليَّ ثمّ إليَّ مرجعكم فأُنبِّئكم بما كنتم تعملون * يا بُنيَّ إنّها إن تك مثقال حبّةٍ من خردل فتكن في صخرة أو في السَّمٰوات أو في الأرض يأتِ بها الله إنّ الله لطيف خبير * يا بُنيَّ أقِمِ الصلاة وأمُر بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأُمور * ولا تُصعِّر خدَّك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إنّ الله لا يحبُّ كلَّ مختال فخور * واْقصد في مشيك واْغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[1].

---

١ ـ لقمان/١٢ – ١٩.

الفهرست